قسم

البلاغة والنقد

من أسرار التعبير البلاغى فى سورة المطففين

إعـــداد

فاطمة محمد محمد المهدى

الأستاذ المساعد بقسم البلاغة والنقد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات بسوهاج

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذى أنزل القرآن تبياناً لكل شىء، وهدى ورحمة للعالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد

فالقرآن الكريم معجزة الله الخالدة التى تحدى بها العرب على لسان نبيه لجمالها الفنى، وبلاغتها المسيطرة واعجازها البلاغى ...

وقد عكف العلماء على مدى قرون طويلة يلتمسون أسرار الإعجاز، وسمات الجمال، ويغترفون من نبعه الفياض كل بما يتناسب مع ثقافته وثقافة عصره، ومع ذلك فهو معين لا ينضب، وبحر لا تنفد ذخائره ونفائسه.

وهذا بحث موضوعه: "من أسرار التعبير البلاغى فى سورة المطففين"

وهو بحث يقوم على تطبيق المصطلحات البلاغية على آيات سورة المطففين، ويبين أسرارها البلاغية.

والاتجاه التطبيقى باستقصائه الأساليب البلاغية -قدر الجهد- يصحح كثيراً من المفاهيم، كما أنه أقرب المناهج إلى النفس وعالمها المزدحم بالمشاعر، كما أنه عليه الأمل فى إثراء المسيرة البلاغية.

وقد جاء البحث فى مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة.

المقدمة: ذكرت فيها موضوع البحث، وسر اختيارى لهذا الموضوع، والمنهج الذى سرت عليه.

التمهيد: ذكرت فيه التعريف بالسورة من حيث تسميتها عدد آياتها، مكية السورة أو مدنيتها، سبب نزولها، مناسبة السورة لما قبلها، الأغراض التى اشتملت عليها السورة الكريمة، فضلها.

المبحث الأول: أسرار التعبير البلاغى فى الآيات التى تتحدث عن وعيد المطففين.

المبحث الثانى: أسرار التعبير البلاغى فى الآيات التى تتحدث عن ديوان الشر وقصة الفجار.

المبحث الثالث: أسرار التعبير البلاغى فى الآيات التى تتحدث عن ديوان الخير وقصة الأبرار.

المبحث الرابع: أسرار التعبير البلاغى فى الآيات التى تتحدث عن سوء معاملة الكفار للمؤمنين فى الدنيا ومقابلتهم بالمثل فى الآخرة.

وفى كل مبحث من المباحث السابقة كنت أبدأ بعرض الآيات التى هى موضوع المبحث ثم بعرض معانى المفردات، ثم بعد ذلك كنت أتناول الأساليب البلاغية الموجودة فى الآيات بالشرح والتوضيح موضحة السر البلاغى لكل أسلوب.

فتحدثت عن بلاغة التراكيب فى السورة الكريمة من حيث خبرية الجمل أو إنشائيتها، وتعريف الكلمات أو تنكيرها وتقديم بعض الكلمات على بعض.

كما وضحت ما جاء فى السورة من إسناد حقيقى ومجازى وبينت مواضع الفصل والوصل، والإيجاز والإطناب فى السورة الكريمة.

وكان من وجوه الإعجاز البلاغى فى السورة التصوير البيانى الرائع الذى جاء فى صورة التشبيه والمجاز اللغوى والكناية.

وكان لكل أثره فى تصوير المعنى، وإبرازه فى صورة حسية ملموسة.

كما كان للتعبير بالمحسنات البديعية دور بناء فى إفادة المعنى وإثراء الأسلوب.

ولم أقتصر على الأساليب البلاغة المتداولة فى كتب البلاغة بل كنت أتطرق إلى كتب الإعجاز القرآنى التى تبحث فى اللفظة المفردة وحسن التعبير بها فى موقعها، ومدى ملائمتها للغرض الذى سيقت من أجله.

ثم ذكرت بعد ذلك تعقيباً تحدثت فيه عن الرقة والجزالة ومواطنها فى السورة ثم وضحت الفاصلة وبلاغتها فى السورة الكريمة.

وقد ذيلت البحث بخاتمة وفهرس للمصادر والمراجع.

هذا وقد بدأت البحث ومرجعى الأول فيه كتاب الله أنهل من معينه العذب، ثم أرجع بعد ذلك إلى كثير من كتب التفسير والإعجاز وكتب البلاغة قديمها وحديثها لأستخراج التعبير البلاغى وأبين نوعه، وسره البلاغى.

ولا أدعى أن استقصيتها جميعاً فهذا غيض من فيض بحر بلاغة الكتاب العزيز، وقليل من كثير أرجو أن يحقق الغاية المرجوة.

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

التمهيد

تعريف بالسورة(١):

تسميتها:

سميت سورة المطففين لافتتاحها بقوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ وهم الذين يبخسون المكيال والميزان إما بالزيادة إذا اكتالوا أو وزنوا لأنفسهم، وإما بالنقصان إذا اكتالوا أو وزنوا لغيرهم.

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

آياتها ست وثلاثون، وكلماته مائة وتسع وستون، وحروفها سبعمائة وثلاثون حرفاً، وهى السورة السادسة والثمانين فى عداد نزول السور، نزلت بعد سورة "العنكبوت" وقبل سورة البقرة.

مكية السورة أو مدنيتها:

اختلف فى كون السورة مكية أو مدنية أو بعضها مكى، وبعضها مدنى، فعن ابن مسعود والضحاك ومقاتل فى رواية عنه أنها مكية، وعن ابن عباس وعكرمة والحسن والسدى ومقاتل فى رواية أخرى عنه أنها مدنية، قال وهى أول سورة نزلت بالمدينة، وعن ابن عباس فى رواية عنه وقتادة: هى مدنية إلا ثمان آيات من آخرها من قوله: "إن الذين أجرموا ... إلى آخرها.

---

(١) أفدت من تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص٦٣٩ - دار الكتب العلمية، الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله محمد بن أحمد النصارى القرطبى ت ٦٧١هـ ١٢٧٣م ج ٢٠ ص ٢٥٠ - دار إحياء التراث العربى - بيروت - لبنان، غرائب القرآن ورغائب الفرقان تأليف عصام الدين الحسن بن محمد بن الحسين القمى النيسابورى ت ٧٢٨هـ تحقيق إبراهيم عطوة عوض ٣٠/٤٥ مطبعة الحلبى.

وقال الكلبي وجابر بن زيد: نزلت بين مكة والمدينة فهي لذلك مكية، لأن العبرة في المدني بما نزل بعد الهجرة على المختار من الأقوال لأهل علم القرآن[١].

ويمكن القول بأنها أخر ما نزل بمكة وأول ما نزل بالمدينة.

ولكن أرجح الآراء وأصوبها أنها نزلت بين مكة والمدينة لتطهير المدينة من فساد المعاملات التجارية قبل أن يدخلها النبي ﷺ[٢].

سبب نزول السورة:

روى أن رسول الله ﷺ قدم المدينة وكانوا من اخبث الناس كيلاً، فنزلت فأحسنوا الكيل.

وقيل قدمها وبها رجل يعرف بأبي جهينة ومعه صاعان: يكيل بأحدهما، ويكتال بالآخرة[٣].

وقيل كان أهل المدينة تجاراً يطففون، وكانت بياعاتهم المنابذة والملامسة والمخاطرة، فنزلت فخرج رسول الله ﷺ فقرأها عليهم وقال: خمس بخمس "قيل يا رسول الله وما خمس بخمس؟ قال: ما نقضى قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ولا طففوا الكيل إلا منعو النبات وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر[٤].

---

(١) التحرير والتنوير للظاهر بن عاشور ١٨٧/٢٠ - الدار التونسية.

(٢) تنوير المقباس ص٦٣٩ والقرطبي ٢٥٠/٢٠.

(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٨٧/٣٠ - الدار التونسية.

(٤) أخرجه الحاكم من رواية عبد الله بن بريده عن أبيه رفعه ما نقض قوم العهد ...

وعن علي رضي الله عنه أنه مر برجل يزن الزعفران وقد أرجح فقال له: أقم الوزن بالقسط، ثم أرجح بعد ذلك ما شئت كأنه أمره بالتسوية أولاً ليعتادها ويفصل الواجب من الثقل وعن ابن عباس: إنكم معشر الأعاجم وليتم أمرين بهما هلك من كان قبلكم: المكيال والميزان، وخص الأعاجم لأنهم يجمعون الكيل والوزن جميعاً وكانا مفرقين في الحرمين: كان أهل مكة يزنون وأهل المدينة يكيلون، وعن ابن عمر أنه كان يمر بالبائع فيقول له "اتق الله وأوف الكيل، فإن المطففين يوقفون يوم القيامة لعظمة الرحمن حتى أن العرق ليلجمهم وعن عكرمة: أشهد أن كل كيال ووزان في النار، فقيل له: إن منك كيال أو وزان: فقال أشهد أنه في النار[1].

مناسبة السورة لما قبلها:

تتعلق هذه السورة بما قبلها من وجوه:

١) يقول المولى عز وجل واصفاً يوم القيامة في آخر السورة المتقدمة وهي سورة الانفطار ﴿يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾[2] وفي هذا تهديد عظيم للعصاة، ولذلك اتبعه بقوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾[3] والمراد: الزجر عن التطفيف، والوعيد للمطففين[4].

الحديث، وفيه بشر بن المهاجر وعليه فقال: "ومن طريق عطاء بن أبي رباح عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً نحوهم.

(١) الكشاف ٤/٧١٨-٧١٩

(٢) سورة الانفطار أية ١٩.

(٣) سورة المطففين آية ١.

(٤) الفخر الرازي ٣٢/٨٨.

٢) كل من السورتين تتحدث عن أحوال يوم القيامة

٣) في السورة المتقدمة ذكر المولى عز وجل الحافظين أو الكتبة فقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَاماً كَاتِبِينَ﴾[١] وفي هذه السورة ذكر ما يكتبه الحافظون ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾[٢] يجعل في عليين أو في سجين.

٤) في كل من السورتين صنف المولى عز وجل الناس إلى فريقين أبرار وفجار، وذكر مآل كل فريق إما إلى الجنة وإما إلى النار قال أبو حيان: "لما ذكر تعالى السعداء والأشقياء ويوم الجزاء وعظم شأن يومه ذكر ما أعد لبعض العصاة، وذكر بأحسن ما يقع من المعصية وهي التطفيف الذي لا يكاد يجي شيئاً في تثمير المال وتنميته[٣].

ما اشتملت عليه السورة من أغراض:

١) عنيت هذه السورة بأحوال يوم القيامة وأهوالها.

٢) كما عنيت بأمر من أمور الأخلاق الاجتماعية وهو تطفيف الكيل والميزان وحذرت منه، وبينت أنه تحيل على أكل أموال الناس بدون وجه حق لذلك توعدت المطففين بالعذاب الشديد.

٣) بينت السورة أن كتاب الفجار الأشقياء في ديوان الشر وفي كتاب مرقوم بعلامة وأن مصيرهم أسفل السافلين في نار جهنم ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ...﴾[٤].

---

(١) الانفطار ١٠-١١.

(٢) المطففين ٢٠.

(٣) البحر المحيط ٨/٤٣٩.

(٤) الآيات ٧ : ١٧.

ثم قابلت حال هؤلاء بضده من الأبرار أهل الإيمان ورفع درجاتهم، وإعلان كرامتهم بين الملائكة والمقربين وذكرت صور نعيمهم.

ثم انتقلت السورة بعد ذلك لبيان حال الفريقين فى هذا العالم الزائل إذ كان المشركون يسخرون من المؤمنين يلمزونهم ويتضعفونهم ثم انقلب الحال فى العالم الأبدى وصار المؤمنون يتضاحكون من الأشقياء المجرمين ويسخرون منهم، وينظرون إليهم وهم يعذبون فى النار وما يلقونه من العذاب والنكال.

عن رسول الله ﷺ " من قرأ سورة المطففين سقاه الله من الرحيق المختوم يوم القيامة"(١).

---

(١) أخرجه ابن مردويه والثعلب والواحدى بسندهم إلى أبى ابن أبى كعب صحيح البخارى فضل سورة المطففين.

المبحث الأول

أسرار التعبير البلاغي في الآيات التي تتحدث عن وعيد المطففين

قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلاَ يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥)﴾.

الويل: شدة العذاب أو الشر، وقيل واد في جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره[١] وهي كلمة دعاء بسوء الحال.

الطف من الأفعال التي ليس لها فعل مجرداً إذ لم ينقل إلا بصيغة التفعيل، وفعله "طفف" وهو: "البخس في الكيل والوزن لأن ما يبخس شيء طفيف حقير"[٢].

"والتركيب يدل على التقليل، وطف الشيء جانبه، وطف الوادي والإناء إذا بلغ الشيء الذي فيه حرفه ولم يمتلئ[٣].

ولا يخفى ما في تكرير الحرف وتضعيف الفعل من الفائدة العظيمة للمعنى حيث أنه دل على دقة المعنى المراد وقد أفاد تكرير الحرف والتضعيف عظم الجرم. كما أن جرس هذه الحروف من طاء وفاء مضعفة يزيدها رونقاً ودقة في أداء المعنى المراد منها وهو الشيء اليسير.

---

(١) تنوير المقياس ٦٣٩.

(٢) أبو السعود ١٢٤/٩.

(٣) غرائب القرآن ٤٥/٣٠.

وعبر النظم القرآنى بصيغة التفعيل ليدل على معنى التكلف والمحاولة، ولم يصدر منهم ذلك عفواً فالمطفف يحاول أن ينقص الكيل دون أن يشعر به المكتال، ويقابله الوفاء، ولذلك استحقوا الدعاء عليهم بالويل والثبور والهلاك، جزاء لهم على صنيعهم: المتكلف المتعمد.

وإذا ما نظرنا إلى جرس تلك الكلمات "ويل-المطففين" نجدها قد جمعت واحتوت الحروف الشديدة المستعلية والتى يتصف بعضها بالجهارة وذلك لتلائم شدة وعظم الأمر المتحدث عنه ففى كلمة "المطففين" نجد اللسان ينتقل من الميم إلى الطاء إلى الفاء المكررة، وكذلك هذه الحروف تصرخ بذاتها معظمة ومستكبرة ومستهجنه صنيع هؤلاء.

والاكتيال: افتعال من الكيل، وهو يستعمل فى تسلم ما يكال وهو مطاوع كال.

"وهذا الوزن دال على التشارك وعلى أن من أتى به قد أتى بما يجتهد فيه ويتصرف برأيه بل ويبالغ فيما يعمله وفيما اختاره"[1] لنفسه، وهذا كله ينطبق على الفريق المطفف فى الكيل.

وحق فعل "الاكتيال" أن يتعدى بحرف الجر "من" ولكن عدى بحرف الجر "على لتضمين اكتالوا معنى التحامل أى إلقاء المشقة على الغير وظلمه "ويجوزان يتعلق على بيستوفون" ويقدم المفعول

---

(١) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ومعه كتاب منحه الجليل بشرح ابن عقيل تأليف محمد محى الدين عبد الحميد ٢٦٤/٤ - الطبعة العشرون ١٤٠٠هـ - ١٩٨٨ - دار مصر للطباعة - القاهرة [تكملة فى تصريف الأفعال].

على الفعل لإفادة الخصوصية أى يستوفون على الناس خاصة أما أنفسهم فيستوفون لها"[١].

يقول الزمخشرى: "لما كان اكتيالهم من الناسِ اكتيالاً يضطرهم ويتحامل فيه عليهم أبدل "على" مكان "من"[٢].

والاستيفاء أخذ الشيء وافياً، فالسين والتاء فيه للمبالغة في الفعل مثل استجاب، أى يأخذون حقهم وافياً مستفيضاً ويزيدون عليه، وفى اللفظ أشعار بمعناه.

وقد بدئت هذه السورة بالأسلوب الخبرى الذى خرج من معناه الحقيقى إلى معنى آخر مجازى وهو التهديد والوعيد للمطففين.

وتنكير "ويل" للتهويل والتفخيم من شأن شدة العذاب أو الشر الذى سيلحق بهم يوم القيامة جزاء لهم على فعلهم الذى يبدو هيناً، حيث إن الذى يبخس يعتبر هذا شيء طفيف حقير إلا أنه عند الله أمر عظيم مهول لذلك هول العذاب والعقاب عليه، فهو من الأمور المحرمة شرعاً الموجبة للإثم الشديد والعذاب الأليم فى الآخرة.

وهو أيضاً رذيلة اجتماعية وعيب أخلاقى ينقص من قدر صاحبه فى أعين الناس ويدعوهم إلى الابتعاد عنه.

وحبذا لو عرف تجار هذه الأيام ما ينتظرهم من عذاب أليم، وعقاب ويل يوم القيامة جزاء لهم على انقاصهم حق الآخرين فى الكيل أو الوزن.

والخير فى قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ...﴾خرج من معناه الحقيقى إلى معنى آخر مجازى وهو التوبيخ.

---

(١) الكشاف ٤/٧١٩، تفسير الفخر الرازى ٣٢/٨٩، غرائب القرآن ٣٠/٤٥.

(٢) المرجع السابق المكان نفسه.

وعبر عنهم باسم الموصول "الذين" للإشارة إلى ذمهم وتحقيرهم واهانتهم.

ومفعول فعل الاكتيال محذوف لأنه معلوم فى فعل "أكتالوا" أى اكتالوا مكيلاً" أو اشتروا من الناس ما يباع بالكيل.

ومعنى كالوهم: باعوا للناس مكيلاً فحذف المفعول لأنه معلوم من سياق الكلام.

والحذف هنا أبلغ من الذكر لأن فيه الإيجاز والاختصار ولتذهب النفس فى تقدير المكيل المحذوف كل مذهب أى كل ما يباع بالكيل.

كما أن فى الآية حذف آخر زادها إيجازاً وبلاغة وهو حذف لام الجر فى الفعل "كال" "ووزن" لأن إحداهما التعدية إلى الشىء المكيل أو الموزون بلام الجر يقال كال له طعاماً ووزن له ذهباً، والحذف هنا تخفيفاً لكثرة دورانه على الألسنة.

والاقتصار على قوله: "إذا اكتالوا دون أن يقول: وإذا اتزنوا كما قال: "وإذا كالوهم أو وزنوهم" اكتفاء بذكر الوزن فى الثانى تجنباً لفعل "اتزنوا" لقلة دورانه فى الكلام فكان فيه شىء من الثقل، ولنكتة أخرى وهى أن المطففين هم أهل التجر، وهم يأخذون السلع من الجالبين فى الغالب بالكيل، لأن الجالبين يجلبون التمر والحنطة ونحوهما مما يكال ويدفعون لهم الأثمان عيناً بما يوزن من ذهب أو فضة مسكوكين أو غير مسكوكين، فلذلك اقتصر فى ابتياعهم من الجالبين على الاكتيال نظراً إلى الغالب، وذلك فى بيعهم للمباعين الكيل والوزن لأنهم يبيعون الأشياء كيلاً ويقبضون الأثمان وزناً، وفى هذه إشارة إلى أن التطفيف من عمل تجارهم"[1].

---

(١) التحرير والتنوير ١٩٢/٣٠.

يقول الرازي: "ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا ..." ولم يقل إذا اتزنوا، ثم قال: وإذا كالوهم أو وزنوهم" فجمع بينهما لأن الكيل والوزن بها الشراء والبيع فأحدهما يدل على الآخر[١].

والضمير المنصوب في قوله: "كالوهم أو وزنوهم" راجع إلى الناس والأصل كالوا لهم ووزنوا لهم، فحذف الجار وأصل الفعل، ويجوز أن يكون على حذف مضاف والتقدير: كالوا مكيلهم، أو وزنوا موزونهم، والحذف هنا للإيجاز والاختصار في الكلام.

وجملة: "الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون" إدماج[٢] جيء به للكشف عن عادة ذميمة فيهم هي الحرص على توفير ... مقدار ما يبتاعونه بدون حق لهم فيه.

وكان للإدماج هنا دوره وبلاغته في التعبير القرآني فحسن في موقعه وجمل في مكانه.

وفصلت جملة "الذين إذا اكتالوا ... عما قبلها لأنها بمثابة البيان لها، أو لما بينهما من شبه كمال اتصال حيث إن جملة: "الذين إذا اكتالوا ..." بمثابة جواب لسؤال اقتضته جملة "ويل للمطففين" فكأن سائلاً سأل ولم كان الويل لهم؟ فأجيب بقوله: "الذين إذا اكتالوا ...".

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٣٢/٨٩.

(٢) وهو أن يدمج المتكلم غرضاً له في ضمن معنى قد نحاه عن جملة المعاني ليوهم السامع أنه لم يقصده، وإنما عرض في كلامه لتتمة معناه الذي قصده" تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لأبن أبي الإصبع المصري ت ٥٨٥ - ٦٥٤هـ تقديم وتحقيق د/ حفني محمد شرف ص٤٤٩. يشرف على إصدارها محمد توفيق عويضة.

وعطف جملة: "وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون" على ما قبلها لما بينهما من التضاد.

وهكذا نجد أن للتعبير بالفصل والوصل في القرآن الكريم منزلة بلاغية سامية، حسب استدعاء الحال، واقتضاء المقام.

والبلاغة إذا اعتزلتها المعرفة بالفصل والوصل كانت كاللآلئ بلا نظام.

يقول الإمام عبد القاهر: إن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف فيها، والمجيء بها منثورة، تستأنف واحدة منها بعد أخرى، من أسرار البلاغة، ومما لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخلص والأقوام طبعوا على البلاغة، وأو توافنا من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد، وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك أنهم جعلوه حداً للبلاغة، فقد جاء عن بعضهم أنه سئل عنها فقال: معرفة الفصل من الوصل، وذلك لغموضه ودقة مسلكه، وأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل لسائر معاني البلاغة"(١).

وهكذا نجد أن الأساليب البلاغية في السورة الكريمة قد تضافرت وتآزرت، وكان لكل أسلوب بلاغية ووقعه في السياق القرآني، حتى بدت السورة الكريمة كلوحة فنية جميلة رائعة، ساعد كل لون من الألوان البلاغية على إبراز ما فيها من جمال وروعة.

ومن التعبيرات البلاغية الجميلة في السورة الكريمة المقابلة

---

(١) دلائل الإعجاز ص١٥٦.

فـي قولـه: ﴿الَّذِيـنَ إِذَا اكْتَـالُوا عَلَـى النَّـاسِ يَسْـتَوْفُونَ وَإِذَا كَـالُوهُمْ أَو وَزَنُوهُمْ يُخْسِـرُونَ﴾.

والمقابلـة مـن المحسـنات البديعيـة المعنويـة التـي تكسـو اللفـظ حـلاوة، وتزيـده طـلاوة، وتؤكد المعنـى في ذهن السامع أشد تـأكيد.

﴿أَلاَ يَظُـنُّ أُولَئِـكَ أَنَّهُـم مَّبْعُوثُـونَ (٤) لِيَـوْمٍ عَظِيـمٍ (٥) يَـوْمَ يَقُومُ النَّـاسُ لِـرَبِّ العَـالَمِينَ (٦)﴾

ألا يظن: أسلوب إنشائي أتى في صورة الاستفهام الذي خرج من معناه الحقيقي إلى معنى آخر مجازي وهو الإنكار والتعجب والتوبيخ لهم على اجترائهم على التطفيف كأنه لا يخطر ببالهم ولا يخمنون أنهم مبعوثون، يقول القرطبي: "ألا يظن: إنكار وتعجيب عظيم من حالهم في الاجتراء على التطفيف كأنهم لا يخطرون التطفيف ببالهم ولا يخمنون تخميناً"(١).

وقد عدل النظم القرآني السابق عن الإضمار إلى اسم الإشارة في قوله: ﴿أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ﴾ للإشعار بمناط الحكم الذي هو وصفهم فإن الإشارة إلى الشيء متعرضة له من حيث اتصافه بوصفه، وأما الضمير فلا يتعرض لوصفه، وللإيذان بأنهم ممتازون بذلك الوصف القبيح عن سائر الناس أكمل امتياز نازلون منزلة الأمور المشار إليها إشارة حسية، وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد درجتهم الشنيع الهائل أنهم مبعوثون"(٢).

---

(١) القرطبي ٢٠/٢٥٤.

(٢) أبو السعود ٩/١٢٥.

فالتعبير باسم الإشارة مكان الضمير هنا لقصد تمييزهم وتشهير ذكرهم فى مقام الذم، ولأن الإشارة إليهم بعد وصفهم بـ "المطففين" تؤذن بأن الوصف ملحوظ فى الإشارة فيؤذن بتعليل الإنكار.

واللام فى قوله: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لام التوقيت مثل: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾(١).

وفائدة لام التوقيت إدماج(٢) الرد على شبهتم الحاملة لهم على إنكار البعث باعتقادهم أنه لو كان بعث لبعثت أموات القرون الغابرة فأومأ قوله: ليوم" أن للبعث وقتاً معيناً يقع عنده"(٣).

وإذا ما نظرنا إلى النظم القرآنى السابق نجده يصف ذلك اليوم بقوله: "عظيم" فيستعمل هنا صيغة "فعيل" الدالة على المبالغة فى وصف الشىء وتعظيمه(٤).

وفى قوله: "يوم عظيم" مجاز عقلى علاقته الزمانية فاليوم لا يكون عظيماً، وإنما يعظم ما يكون فيه من شدائد وأهوال تشيب من هولها الرؤوس فهذا اليوم عظيم لا يقادر قدره وعظم ما فيه، ومحاسبون فيه على مقدار الذرة والخردلة "فإن من يظن ذلك إن كان ظناً ضعيفاً متاخما للشك والوهم لا يكاد يتجاسر على أمثال هاتيك القبائح فكيف بمن يتيقنه"(٥).

---

(١) سورة الإسراء آية ٧٨.

(٢) سبق تعريفه ص

(٣) التحرير والتنوير ١٩٣/٣٠.

(٤) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ٥١٠/٢ - الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٢٨٣/٣.

(٥) أبو السعود ١٢٥/٩.

وقد أدى المجاز العقلى هنا دوره فى بلاغة السياق وإيجازه وروعته فى الدلالة على عظم هول يوم القيامة، وما يقع فيه من شدائد وأهوال.

والمجاز العقلى كنز من كنوز البلاغة ومادة الشاعر المفلق، والكاتب البليغ فى الإبداع والإحسان والاتساع فى طرق البيان، وأنه يدق ويلطف حتى يمتنع مثله إلا على الشاعر المفلق والكاتب البليغ(١).

كما أن له أثر فى توسع أساليب اللغة، فهو يعين الأديب على أداء معانيه. والوصول إلى مراميه فى صورة بليغة موجزة.

"يوم يقوم الناس لرب العالمين".

التعبير بالمضارع لاستحضار الحالة التى سيكون فيها الناس فى ذلك اليوم، فمجىء القيام على صورة المضارع تلك الصيغة الكاشفة التى تصف الحدث -وهو يقع- أتم وصف، وتبينه أبلغ بيان.

واللام فى "الناس، والعالمين" للاستغراق لاستغراق جميع الخلق ليشمل أهل السعادة وأهل الشقاء.

واللام فى "لرب" للتعليل أى لأجل ربوبيته.

والقارئ لكتاب الله العزيز يجد أن النظم القرآنى امتاز بأنه كل كلمة فيه قد اختيرت اختياراً بالغاً، وكل لفظة قد وضعت فى مكانها الذى هو أحق بها من غيرها وهى أحق به، وقد قيل عن

---

(١) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى ٢١٣ - تحقيق محمد رشيد رضا - دار المعرفة - بيروت.

دقة ألفاظه الكثير، فقد ذكر بعضهم "لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم توجد"(١).

فإذا ما نظرنا إلى الآية السابقة نجد أن النظم الكريم عبر بلفظ "رب العالمين" دون "إله" العالمين، وذلك لأن الرب يعنى المالك لكل شيء، والمستحق والصاحب له والمصلح والقائم على الشيء(٢) ولأن له جميع الفضل على جميع الناس.

وفى الآية نجد قيام الناس أو العباد له سبحانه وتعالى، والربوبية تدل على الملكية والتربية، وفى ذلك تأكيد لايجاب الامتثال به ترهيباً وترغيباً ووقوفهم بين يدى خالقهم ورازقهم خشوعاً وخضوعاً.

وفى التعبير بلفظ "رب" تقوية لهذا المعنى، فالله هو الذى ربانا وأنعم علينا وأحسن إلينا، وهو فوق هذا مالكنا وسلطان أمرنا فيجب طاعته والوقوف بين يديه، والخوف من عقابه وغضبه، فهو القادر قدرة المالك على المملوك والمربى على المربى، ثم كيف يكون التجاسر على عصيانه ومخالفته وارتكاب ما يغضبه من تطفيف وغيره بعد خلقه لنا وإحسانه علينا.

كما أن التعبير بلفظ "رب" فيه تأكيد لوقوفهم بين يديه امتثالاً مع جذب الناس، وتلطيف الأمر إليهم بخلاف لو قال: "إله العالمين"

---

(١) قاله ابن عطية فيما نقله عنه السيوطى فى كتابه الإتقان للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى ٩/٤ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - نشر وتوزيع دار التراث - القاهرة - الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

(٢) لسان العرب ٣٩٩/١ - دار صادر - بيروت.

حيث يدخل إليه شيء من القهر والقوة والغلبة.

والقرآن الكريم يضع كلاً في موضعه ومكانه الملائم، ووضع "رب" في هذا الموضع من سورة المطففين يناسب الغرض المراد وهو استحضار عظمة الله تعالى عند الوقوف بين يديه للعرض والحساب، فالقيام له شيء حقير أمام عظمته.

ولفظ "إله" يدل على الإلهية والتحير في عظمة الله عز وجل والولي إليه إما بالتسخير أو الإرادة واللجوء له سبحانه والأمن عنده، والتوجه إليه بالعبادة"[1] وهذا يتلاءم مع المواضع التي يرد فيها دعوة إلى الإيمان والتوحيد والتصديق بالله تعالى، حيث أن النفس بطبيعتها تأله وتسكن إليه.

ولو تتبعنا القرآن الكريم لوجدنا أنه يذكر لفظ "إله" في المواضع التي يرد فيها أمر بالإيمان والإسلام، والدعوة إلى الإخلاص لله وحده وعبادته سبحانه وحده دون سواه، وذلك لأن الإله هو الذي تأله له النفس وتسكن وتتشوق إليه، فكان التعبير به في ميدان العبادة أقرب إلى معناه وأنسب.

فالقرآن يستعمل الألفاظ المعبرة عن المعاني أدق تعبير.

يقول الزمخشري لدى تعليقه على هذه الآيات: "وفي هذا الإنكار والتعجيب، وكلمة الظن، ووصف اليوم بالعظم، وقيام الناس فيه لله خاضعين، ووصفه ذاته برب العالمين، بيان بليغ لعظم

---

(١) لسان العرب ٤٦٧/٣ - تاج العروس ٣٧٥/٩ - دار صادر - الصحاح ٢٢٢٤/٦ ، المفردات ص٢١.

الذنب، وتفاقم الأثم فى التطفيف وفيما كان فى مثل حاله من الحيف، وترك القيام بالقسط والعمل على التسوية والعدل فى كل أخذ وإعطاء بل وفى كل قول وعمل"(١).

هذا وقد فصلت جملة "ألا يظن ..." عما قبلها لاختلاف الجملتين خبراً وإنشاءً، فالجملة التى قبلها وهى: "وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون" خبرية لفظاً وجملة "ألا يظن" إنشائية لفظاً ومعنى.

كما فصلت جملة: "يقوم الناس لرب العالمين عما قبلها لأنها بدل مطابق لما قبلها فبينهما كمال اتصال، وهو أن تتحد الجملتان اتحاداً تاماً بحيث تنزل الجملة الثانية من الأولى منزلة نفسها، وعطف الشيء على نفسه لا يصلح.

فانظر إلى مواطن البلاغة فى الآيات السابقة، فقد جمعت بين الأسلوب الخبرى والأسلوب الإنشائى، كذلك جمعت الآيات على وجازتها بين أسلوبى الفصل والوصل.

كما جاء فى الآيات الجمع بين أسلوبى الكلام وهما الإيجاز والإطناب تمثل الإيجاز فى إيجاز الحذف. والإطناب جاء على صورة التكرير.

وقد كان لكل أسلوب من الأساليب البلاغية المتقدمة جماله ووقعه على النفس، وبلاغته فى الأسلوب.

فأى بلاغة تصل إلى بلاغة هذا الأسلوب القرآنى الموجز المعجز.

---

(١) الكشاف ٤/٧٢٠.

لذا يقول الخطاب: "وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة لفظ حامل، ومعنى قائم، ورباط لهما ناظم، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها.

وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام فأما إن توجد مجموعة من نوع واحد منه، فلم توجد إلا في كلام العليم القدير الذي أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، فتفهم الآن وأعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني"[1].

(١) البيان في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص٢٧ - دار المعارف.

المبحث الثاني
التعبير البلاغي في الآيات التي تتحدث عن ديوان الشر وقصة الفجار:

قال تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (١٣) كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ(١٧)﴾

كلا: ردع لهم عما كانوا عليه من التطفيف والغفلة عن ذكر البعث والحساب، وتنبيه لهم على أنه مما يجب أن يثاب عنه، ويندم عليه.

والمعنى: كلا بل هم مبعوثون لذلك اليوم العظيم لتلقى قضاء رب العالمين فهو جواب عما تقدم.

وأكدت جملة "إن كتاب الفجار لفى سجين" بـ "إن، وأسمية الجملة، واللام" لتأكيد مضمون الكلام وهو الوعيد والتهديد للمطففين بأن يكون عملهم موجباً كتبه فى كتب الفجار عن طريق التعريض".

والتعريف "فى الفجار" للجنس مراد به الاستغراق، أى جميع المشركين فيعم المطففين وغيرهم.

والتعبير بلفظ "الفجار" تعبير دقيق فى موضعه، وعبر به

دون غيره من الألفاظ الدالة على وصفهم بالشرك والكفر: "لشمول عموم الفجار لجميع المشركين المطففين، وغير المطففين، يعنى به أن المطففين منهم، والمقصود الأول من هذا العموم، لأن ذكر هذا الوصف والوعيد عليه عقب كلمة الردع عن أعمال المطففين قرينة على أن الوعيد موجه إليهم"(١).

"والفجار" لفظ غلب على المشركين ومن عسى أن يكون متلبساً بالتطفيف بعد سماع النهى عنه من المسلمين الذى ربما كان بعضهم يفعله فى الجاهلية.

وسجين: روى ابن أبى نجيح عن مجاهد قال: سجين صخرة تحت الأرض السابعة تقلب فيجعل كتاب الفجار تحتها، وعن كعب أيضاً قال: سجين صخرة سوداء تحت الأرض السابعة مكتوب فيها اسم كل شيطان تلقى أنفس الكفار عندها.

وقيل هو ضرب مثل إشارة إلى أن الله تعالى يرد أعمالهم التى ظنوا أنها تنفعهم، قال مجاهد: المعنى عملهم تحت الأرض السابعة لا يصعد منها شىء(٢).

فكلمة "سجين" استعملت أدق الاستعمال لبيان مدى الحبس والتضييق على هؤلاء المتحدث عنهم واحتقارهم يوم القيامة فالسجين "مشتق وسمى سجيناً فعيلاً من السجن وهو الحبس والتضيق كما يقال فسيق الفسق"(٣).

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/١٩٤.

(٢) القرطبى ٢٠/٢٥٧.

(٣) الفخر الرازى ٣٢/٩٣.

كما قيل أنه: "كتاب جامع ديوان الشر، دون الله فيه أعمال الشياطين، وأعمال الكفرة والفسقة من الجن والإنس، وهو كتاب مرقوم مسطور بين الكتابة، أو معلم يعلم من رآه أنه لا خير فيه، فالمعنى: إن ما كتب من أعمال الفجار مثبت فى ذلك الديوان، وسمى سجيناً: فعيلاً من السجن وهو الحبس والتضييق فى جهنم، ولأنه مطروح كما روى تحت الأرض السابعة فى مكان موحش مظلم، وهو مسكن إبليس وذريته استهانة به، وإذلالاً له"[1].

وقد صيغت بزنة فعيل من مادة السجين للمبالغة فى بيان مدى حبسهم والتضييق عليهم.

فألفاظ الآية تتأخر وتتعلق وترابط وتتوافق فتعطى بناءاً صياغياً محكمات وإيجازاً بليغاً موحياً، مؤكداً.

إن كتاب الفجار الذين من جملتهم المطففون أى ما يكتب من أعمالهم أو كتابة أعمالهم لفى ذلك الكتاب المدون فيه قبائح أعمال المذكورين.

فالمتأمل لألفاظ الآية "كلا والتأكيد والمجىء بلفظ الفجار ومجىء سجين على هذه الصيغة. كل ذلك يصور المعنى الذى أراده المولى عز وجل أدق تصوير.

فالجملة القرآنية بناء قد أحكمت لبناته، ونسقت أدق تنسيق لا يحس فيها بكلمة تضيق بمكانها أو تنبو عن موضعها أو لا تعيش مع أخواتها حتى صار من العسير بل من المستحيل أن تغير فى الجملة كلمة بكلمة أو أن تستغنى فيها عن لفظ وأن تزيد فيها

---

(١) الكشاف ٤/٧٢١.

شيئاً وصار قصارى أمرك إذا أردت معارضة جملة فى القرآن أن ترجع بعد طول المطاف إليها، كأنما لم يخلق الله لأداء تلك المعانى غير هذه الألفاظ، وكأنما ضاقت اللغة فلم تجد فيها وهى بحر خضم ما تؤدى به تلك المعانى غير ما اختاره القرآن لهذا الأداء[1].

وما أدراك ما سجين: استفهام خرج من معانى الحقيقى إلى معنى آخر مجازى وهو التفخيم والتهويل من أمره أى هو بحيث لا يبلغه دراية أحد.

وعدل عن أن يقول: وما أدراك ما هو لما فى لفظ سجين بمادته وصيغته من تصوير ما هم فيه من حبس وتضييق وتهويل وترويع، ففى الكلام إظهار فى مقام الإضمار.

والاستفهام مستعمل كناية عن تحقيرهم وتحقير شأن كتابهم، بحيث يسأل المتكلم من يسمعه عن الشىء الذى يحصل له الدراية بكنه ذلك الكتاب.

والمقصود أنه لاتصل إليه دراية دارٍ ولم يحط به وصف واصف.

والخطاب فى قوله: "أدراك" لغير معين، والمعنى: وما أدراك أيها السامع، وقد جاء الخطاب لغير معين لإفادة العموم والشمول لكل السامعين.

وجملة "وما أدراك ما سجين" جملة معترضة بين جملة "إن كتاب الفجار لفى سجين وجملة كتاب مرقوم، وقد أفاد الإطناب الذى جاء فى صورة الاعتراض تهويل أمر السجين وتفظيع حال الواقعين فيه.

---

(١) من بلاغة القرآن لأحمد بدوى ص١٠٥ - دار نهضة مصر.

وجملة "كتاب مرقوم" خبر لمبتدأ محذوف يعود إلى كتاب الفجار تقديره: هو: أى كتاب الفجار كتاب مرقوم ففى الآية حذف مسند إليه، وقد اتبع فى حذف المسند اليه هنا استعمال العرب إذا تحدثوا عن شىء ثم أرادوا الإخبار عنه بخبر جديد.

والمرقوم: المكتوب كتابة بينة واضحة تشبه النقش فى الثوب المنسوج، أو معلم يعلم من رآه أنه لا خير منه وعند سماع هذه الآية يخيل إلى الأسماع الكتاب وقد نقشت فيه الكتابة، وكتبت بصورة بينة واضحة.

فألفاظ الآية تشع منها قوى توحى إلى النفس بالمعنى وحياً فتشعر به شعوراً عميقاً، وتحس بجو الفكرة إحساسا قوياً معبراً.

وقد فصلت جملة "كلا إن كتاب الفجار لفى سجين عما قبلها لأنها مستأنفة".

وعطف جملة وما أدراك ما سجين على ما قبلها لاتحاد المعنى فى الجملتين ولوجود المناسبة، وعدم التغاير، وعدم وجود مانع من العطف.

وفصلت جملة كتاب مرقوم عما قبلها لأنها بيان لها فبينهما كمال اتصال.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (١٣) .﴾.

أثر النظم القرآنى التعبير عنهم بصفة المكذبين للدلالة على

التهديد وتحذير أنهم وسموا المطففين المسلمين من أن يستخفوا بالتطفيف فيكونوا بهذا الوصف بمنزلة المكذبين جزاء عليه.

والتعبير عنهم باسم الموصول "الذين" إشارة إلى ذمهم واحتقارهم وأنهم جديرون بهذه الصفة الذميمة التي استحقوها جزاء لهم على ما قدموا من سيئات وجرائم من تكذيب بيوم الدين وغيره.

وفي ذكر التكذيب مجملاً في قوله "للمكذبين" ثم إعادته تفصيلاً ببيان متعلق التكذيب وهو يوم التكذيب إطناب جاء في صورة ذكر التفصيل بعد الإجمال، وذلك لزيادة تقرير تكذيبهم في أذهان السامعين منهم ومن غيرهم من المسلمين وأهل الكتاب.

"وأوعد المكذبين ووصفهم بقوله: "الذين يكذبون" للذم لا للبيان، لأن كل مكذب فالوعيد يتناوله، سواء كان مكذباً بالبعث أو بسائر آيات الله تعالى فهو كقولك مثل فلان الفاسق الخبيث، وإنما خص التكذيب بالبعث لتقدم ذكره وذكر ما يتعلق به"[1].

والتعبير بالمضارع في قوله: "يكذبون" إشارة إلى أن تكذيبهم متجدد ومتكرر لا ينقطع يحدث منهم حالاً بعد حال وأناً بعد آن، لذلك استحقوا ما بعد ذلك من أوصاف ثلاثة، وهذه الصيغة تصف الحدث وهو يقع أتم وصف، وتبينه أبلغ بيان.

وفي قوله: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ أسلوب قصر حقيقي وهو قصر صفة على موصوف أداته النفي والاستثناء، فقد قصر موصوف وهو التكذيب بيوم الدين على المعتدين الآثمين

---

(١) غرائب القرآن ٣٠/٥٠.

الزاعمين القرآن أساطير الأولين وهو صفة. وقد أفاد القصر: التحذير من التكذيب بيوم الدين.

والمعنى: "أنه لا يكذب بيوم الدين إلا من كان موصوفاً بهذه الصفات الثلاثة أولها كونه معتدياً، والاعتداء هو: التجاوز عن المنهج الحق، وثانيها: الأثيم وهو مبالغة في ارتكاب الإثم والمعاصي[1].

والأثيم: صيغة مبالغة في الإثم للدلالة على كثرة وقوع الإثم وارتكاب المعاصي، فهو يبالغ ويشتد في انهماكه في الشهوات المعيبة والفساد، وليس هذا فحسب بل أنه معتد متجاوز حدود الشرع والنظر والعقل، وهو لا يدع سبيلاً لارتكاب المعاصي والخروج عن طاعة الله إلا سلكه، أمثال الوليد بن المغيرة المخزومي.

هذا وقد فصلت جملة "ويل يومئذ للمكذبين عما قبلها ولم تعطف عليها لأنها بيان لمضمون جملة "آلا يظن أولئك أنهم مبعوثون والتنوين في قوله: "يومئذ" عوض عن جملة محذوفة تقديرها: يوم إذ يقول الناس لرب العالمين، ويل فيه للمكذبين.

كذلك فصلت جملة "الذين يكذبون عما قبلها لما بينهما من كمال اتصال، فالجملة الثانية تفصيل لما أجملته الجملة الأولى وبيان لها.

وعطفت جملة: "وما يكذب به إلا كل معتد أثيم" عما قبلها لاتحاد الجملتين في الخبرية لفظاً ومعنى، ولاتحاد المسند فيهما.

---

(١) الفخر الرازي ٣٢/٩٤.

وفصلت جملة: "إذا تتلى عليه آياتنا ..." عما قبلها لأنها مستأنفة استئنافاً بيانياً فكأن سائلاً سأله من هو هذا المعتد الأثيم فأجيب بأنه إذا تتلى عليه ..."

وبلاغة الاستئناف البيانى هى إغناء السامع عن أن يسال تعظيماً له، أو شفقة عليه، أو أن لا يسمع منه شيء أى من السامع تحقيراً له، وكراهة لكلامه، أو مثل لا ينقطع كلامك بكلامه، أو القصد إلى تكثير المعنى بتقليل اللفظ[1].

فالفصل والوصل فن جليل المقدار، كثير الأسرار، لا تحوى فصوله وغايته الإكثار، وفيه من الدقة والغموض ما يتقاعد عن القيام به مشمعل، كما أن فيه تصحيح المعانى من جهة التمام، وتكميل ما بنى عليه ذلك الكلام من الإحكام[2].

﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧)﴾.

كلا: ردع لقولهم أساطير الأولين، أى قولهم أساطير الأولين باطل، وحرف "ويل" للإبطال تأكيد المضمون "كلا" وبياناً وكشفاً لما حملهم أن يقولوا فى القرآن ما قالوه، وأنه ما أعمى بصائرهم من الرين. وهو: "الصدأ الذى يعلو حديد السيف والمرآة، ويقال فى مصدر الرين الران مثل العيب والعاب، والذيم، والذام[3].

---

(١) شروح التلخيص ٣/٥٣ وما بعدها.

(٢) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن تأليف كمال الدين بن عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكانى ت ٦٥١هـ تحيق د/ خديجة الحديثى - د/ أحمد مطلوب ص ٢٦٠ - مطبعة العانى - بغداد - الطبعة الأولى - ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

(٣) المفردات.

والمعنى: غطت على قلوبهم أعمالهم أن يدخلها فهم القرآن والبون الشاسع بينه وبين أساطير الأولين[١].

"قال الحسن البصرى عن الران: هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب، ويسود من الذنوب[٢].

وأخرج ابن جرير وأحمد والترمذى والنسائى عن أبى هريرة -رضى الله عنه- عن النبى ﷺ قال: إن العبد إذا أذنب ذنباً تكتب فى قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن عاد زادت حتى تغلف قلبه، فذلك هو الران الذى ذكره الله سبحانه فى القرآن"[٣].

فتأمل قدرة كلمة "ران" فى تصوير امتناع دخول الحق قلوب هؤلاء الناس فهى لفظة موحية بمعناها، قوية فى بنيتها أوثر لذلك أوتر التعبير بها على غيرها مما يؤدى معناها.

والقلوب: العقول وحواس الإدراك لديهم.

وقد عبر بصيغة المضارع فى قوله: "يكسبون" لإفادة تكرر ذلك الكسب، وتعدده فى الماضى "والمراد أنهم صاروا لإيقاع الذنب حالاً من حال مجترئين عليه، وقويت دواعيهم إلى ترك التوبة وترك الإقلاع فاستمروا وصعب الأمر عليهم"[٤].

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/١٩٩.

(٢) التفسير الميسر فى العقدية والشريعة، والمنهج أ.د/: وهبة الزحيلى ٣٠/١٢١ - دار الفكر - الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

(٣) الكشاف ٤.

(٤) الفخر الرازى ٣/٩٦.

وجاء بفعل "كانوا" ولم يقل "ما يكسبون" إشارة إلى أن المراد ما كسبوه في عمارهم من الإشراك قبل مجيء الإسلام، فهم وإن لم يكونوا مناط تكليف يومئذ، إلا أنهم كانوا مخالفين لما جاءت به الشرائع السالفة وهو الدعوة إلى توحيد الله.

"وكلاً" الثانية تأكيد لـ "كلا" الأولى زيادة في الردع ليصير توبيخاً. فتكرار كلمة "كلا" يمد المغزى قوة في الجرس والإيحاء وتأكيداً للمعنى الوارد بها في حق هؤلاء المتحدث عنهم وهم المكذبون بيوم الدين.

فالإيقاع الذى تحدثه "كلا" بجرسها القوى يوحى بصد النفس، كما أنها توحى بالاحتقار والمهانة والعذاب والتفريق مع التيئيس من الخلاص من العذاب الذى ذكره بعد ذلك.

فأما الإهانة فحجبهم عن ربهم، فالمكذبون بيوم الدين لا يرون الله يوم القيامة، حين يراه أهل الإيمان، وأما العذاب فهو ما في قوله: "إنهم لصالوا الجحيم، وأما التقريع مع التأييس من التخفيف فهو مضمون جملة: ثم يقال: هذا الذى كنتم ...

فكلمة "كلا" تحمل في إيقاعها نغمة قوية موحية بالردع والزجر، وهذه النغمة تنعكس على النفس فتهزها هزاً لتبكتها وتزجرها للتتعظ وترتدع عما هي عليه من التكذيب بيوم الدين وغيرها من المعاصى التى لا تغتفر.

وفي قوله: "عن ربهم" مضاف محذوف تقديره "عن رحمة ربهم" أو كرمته" وهو تمثيل للاستخفاف بهم لأنه لا يؤذن على

الملوك إلا الوجهاء المكرمين"[١]، وعبر عنهم بالضمير فى قوله ربهم" لتحقيرهم، والابتعاد عن ذكرهم بوصفهم الخاص بهم.

كما أن لفظ "صالوا" جمع صال وهو الذى مسه حر النار فصلى النار مس حرها للجسم[٢]. فاللفظ يوحى بمعنى "الإحساس بحر النار المؤلم فهم ليسوا مجرد داخلوا الجحيم بل أنهم مصطلون بحرها. والجحيم من الجحمه وهى شدة تأجج النار[٣].

وحجم وجهه من شدة الغضب استعارة من حجمة الناس وذلك من ثوران حرارة القلب، والجحيم صارت علماً على جهنم دار العذاب فى الآخرة فى اصطلاح القرآن.

وإذا ما نظرنا إلى جرس الكلمات "محجوبون – صالوا – الجحيم" نجدها قد جمعت واحتوت الحروف الشديدة المستعلية والتى يتصف بعضها بالجهارة، وذلك لتلائم شدة وعظم الأمر المتحدث عنه.

كما يزيد الموقف إرهابا وتخويفاً قوله تعالى: ﴿ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون﴾ فقد جمعت الآية بين عذاب الوجل وعذاب الخجل، وقد خرج الخبر من معناه الحقيقى وهو الفائدة أو لازم الفائدة إلى معنى آخر مجازى وهو التوبيخ.

والتعبير باسم الإشارة دل على أنهم صاروا إلى العذاب فعلاً، وأنه ليس مجرد تهديد لهم بل هو أمر مرئى ومشاهد أمامهم الآن،

---

(١) غرائب القرآن ٣٠/٥١.

(٢) المفردات.

(٣) المفردات ص٨٦.

وفى ذلك توبيخ وتقريع لهم، فخزنة جهنم وزبانيتها تبكيتا لهم وتوبيخاً يقولون لهم: هذا هو العذاب الذى كنتم تكذبون به فى الدنيا فانظروه وذوقوه.

وجىء باسم الموصول ليذكروا تكذيبهم به فى الدنيا تنديماً وتحزينا يعالمهم وتجزينا وتقديم "به" على "تكذبون" للاهتمام بمعاد الضمير ولرعاية الفاصلة والمفعول محذوف، أى كذب بسببه من أخبره به، ولذلك قدره بعض المفسرين هذا الذى كنتم به تكذبون به رسل الله فى الدنيا وبنى فعل "يقال" للمجهول لعدم تعلق الغرض بمعرفة القائل والمقصد هو القول[1].

والتعبير بالمضارع فى قوله: "تكذبون" يفيد أنه العذاب الذى تكرَر وعيدهم به وهم يكذبونه، وذلك هو الخلود وهو درجة اشد فى الوعيد، ولذلك كانت هذه الجملة أشد وأنكى فى بيان العذاب من سابقتها.

"وقد عطفت جملة العذاب بحرف "ثم" الدالة فى عطفها الجمل على التراخى الرتبى، وهو ارتقاء فى الوعيد لأنه وعيد بأنهم من أهل النار، وذلك اشد من خزى الإهانة"[2].

فانظر إلى مواطن البلاغة فى السورة، فهذه أربع آيات قصار، ومع ذلك جمعت على وجازتها كثيراً من الأساليب البلاغية الجميلة الرائعة، فقد جمعت بين أسلوبى الكلام الإيجاز والإطناب

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠٢/٣٠.

(٢) التحرير والتنوير ٢٠١/٣٠.

تمثل لإيجاز فى إيجاز الحذف، والإطناب جاء فى صورة التكرير كذلك جاء التعبير باسم الإشارة، واسم الموصول، وكان لكل دوره وبلاغته فى السياق القرآنى.

كذلك جاء التعبير بلفظ الماضى والمضارع، وكان لكل أسلوب من الأساليب البلاغية المتقدمة جماله ووقعه على النفس وبلاغته فى الأسلوب، كذلك جمعت الآيات بين أسلوبى الفصل والوصل، حسب استدعاء الحال، واقتضاء المقام.

المبحث الثالث

أسرار التعبير البلاغي في الآيات التي تتحدث عن ديوان الخير وقصة الأبرار

﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨)﴾.

كلا: ردع عن التكذيب.

وكتاب الأبرار: ما كتب من أعمالهم.

عليون: جمع عِلّىَ وزن فعّيل من العلو وهو صيغة مبالغة في الوصف أي في أعلى درجات العلو وهو: "علم على ديوان الخير الذى دون فيه كل ما عملته الملائكة وصلحاء الثقلين منقول من جمع "على" فعيل من العلو كسجين من السجن، سمى بذلك إما لأنه سبب الارتفاع إلى أعلى الدرجات في الجنة، وإما لأنه مرفوع في السماء السابعة حيث يسكن المكرمين تكريماً له وتعظيماً"[1].

فالعلو هنا علو اعتبارى، أى رفعه في مراتب الشرف والفضل، وجاءت على صيغة التذكير إتماماً لشرف المعنى باستعارة العلو، وشرف النوع بإعطائه صيغة التذكير.

---

(١) الكشاف للزمخشرى ٤/٧٢٢.

وأكدت جملـه: "إن كتـاب الأبـرار لفـى عليين" بثـلاث مؤكـدات، إن واسمية الجملة واللام، وذلك لتقرير مضمون الكـلام وتـأكيده.

والجملة خبريـة خرجت مـن معناهـا الحقيقـى إلـى معنـى آخـر مجازى وهو الترغيب فى العمل الصالح لنيل الدرجات العلـى.

وقد فصلت جملـة "كـلا إن كتـاب الأبـرار ..." عمـا قبلهـا لأنهـا استئناف مسوق لبيان محل كتاب الأبـرار.

ونجد فى قولـه تعالى: "كـلا إن كتـاب الفجـار لفـى سـجين ومـا أدراك مـا سـجين، وقولـه: "كـلا إن كتـاب الأبـرار لفـى عليين ومـا أدراك مـا عليـون" محسـن مـن المحسـنات البديعيـة المعنويـة ألا وهـو المقابلـة الجميلـة الرائعـة التـى أضفـت علـى المعنـى جمـالاً، وزادتـه روعة وبهاء، وامتعت القلب والعقـل معـاً بحسـن وقعهـا فـى السـمع فزادتها ترغيباً وترهيباً.

"فالجنـة موصوفـة بـالعلو والصفـاء والفسـحة وحضـور الملائكـة المقربيـن، والسـجين موصـوف بالتسـفل والظلمـة والضيـق، وحضـور الشياطين الملعونيـن، ولا شـك أن العلـو والصفـاء والفسـحة وحضـور الملائكـة المقربيـن كـل ذلـك مـن صفـات الكمـال والعـزة، واضدادهمـا من صفات النقص والزلـة، فلما أريـد وصـف الكفـرة وكتـابهم بالزلـة والحقارة، قيل أنـه فـى موضـع التسـفل والظلمـة والضيـق، وحضـور الشـياطين، ولمـا وصـف كتـاب الأبـرار بـالعزة قيـل أنـه فـى عليين ويشـهده المقربـون ...

والعلـو والفسـحة والضيـاء والطهـارة مـن علامـات السـعادة والسفل والضيق والظلمـة من علامـات الشـقاوة، فلمـا كـان المقصـود

من وضع كتاب الفجار فى أسفل السافلين، وفى أضيق المواضع إذلال الفجار وتحقير شأنهم، كان المقصود من وضع كتاب الأبرار فى أعلى عليين، وشهادة الملائكة لهم بذلك إجلالهم وتعظيم شأنهم"[١].

"وما أدراك ما عليون".

أسلوب إنشائى جاء فى صورة الاستفهام الذى خرج من معناه الحقيقى إلى معنى آخر مجازى وهو التفخيم والتعظيم لمراتب الأبرار أى وما أعلمك يا محمد أى شىء هو عليون؟ ويراد بذلك تفخيم أمره وتعظيم شأنه،[٢] فهو فى كتاب مسطور سطرت فيه أسماؤهم وأعمالهم وهو السجل الكبير الذى تحفره الملائكة وتحفظه كما يحفظ اللوح المحفوظ.

ووصل جملة "وما أدراك ما يوم الدين" بالجملة السابقة بواو العطف لكون الحديث فى معنى واحد وهو يوم القيامة لذلك كان أدعى إلى الاتصال، وهذا ما صرح به الإمام عبد القاهر الجرجانى حيث أخبر فى باب الفصل والوصل، وأنه لا يصح الوصل فى الجمل "حتى يكون المعنى فى هذه الجملة لفقاً لمعنى الأخرى ومضافاً له مثل إن زيدا وعمر إذا كانا أخوين أو نظيرين، أو مشتبكى الأحوال على الجملة كانت الحال التى يكون عليها أحدهما من قيام أو قعود أو ما شاكل ذلك مضمومة فى النفس إلى الحال التى عليها الآخر من غير شك، وكذلك السبيل أن والمعنى والمعانى فى ذلك كالأشخاص"[٣].

---

(١) الفخر الرازى ٣٢/٩٣-٩٨.

(٢) القرطبى ٢٠/٢٦٣.

(٣) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر ص١٧٣ - تحقيق رشيد رضا.

وإذا ما قرأنا قوله تعالى: "إن الأبرار لفى نعيم" نجد أن بناء الجملة تكاثرت فيه عناصر التوكيد، وقد دخلت اللام مع إن على الجملة فازداد معنى التأكيد، وكان، بمنزلة تكرار الجملة ثلاث مرات، وهذا الإيجاز أو الاقتصاد فى ألفاظ الجملة وحصول الغرض من التوكيد هو الذى أعطى الجملة فخامتها وقوتها، حيث إن البلاغة هى الإيجاز.

وقد عدل عن الإضمار إلى الاظهار فى قوله: "الأبرار" حيث عبر عنهم بوصفهم دون ضميرهم كما فى جملة "إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون" تنويهاً بوصف الأبرار، والثناء عليهم، وتكريماً لهم، وزيادة فى تشريفهم.

وقد فصلت هذه الجملة عن التى قبلها ولم تعطف عليها لما بينهما من كمال اتصال، فموقعها موقع البيان أو موقع البدل لما قبلها.

والتعرض لنعيم الأبرار إدماج[1] اقتضته المناسبة، وإن كان المقام من أول السورة مقام إنذار"[2].

وقد أعقب وعيد الفجار بوعد الأبرار وهذا من عادة القرآن تعقيب الإنذار بالتبشير والعكس لبيان الفرق بين وعيد الكفار والفجار، ووعد الأبرار والمؤمنين، فالجزاء من جنس العمل إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

والمقابلة واضحة فى كل جزئية من الجزئيات التى تصور حال كل من الفريقين وجزائهم.

---

(١) سبق تعريفه.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٢٠٣.

والمقابلة في الصور بين المعاني المتناقضة من أهم أسباب بلاغة الأقوال، وإن هذه السمة لها منزلة عالية فهي طريقة محببة إلى النفوس يقود إليها الطبع، وأنها تساعد على تجلية الحقائق وتميزها، فجمال الشيء يعرف بقبح ضده كما أن عظمته تعرف بحقارة مقابله فهذا الأسلوب يتناسب وحال النفس البشرية التي تنزع إلى المناقضات.

وإذا ما تدبرنا النظم القرآني السابق نرى التعبير بلفظ "ينظرون" دون غيرها من الألفاظ المترادفة كالرؤية والمشاهدة لإظهار مدى النعيم الذي فيه هؤلاء الأبرار فهم ينظرون بأعينهم ليشبعوا قلوبهم وحواسهم.

فالنظر هو "تأمل الشيء بالعين ومعاينته، فإذا قلنا نظرت في الشيء احتمل أن يكون تفكراً، وإذا قلنا نظرت إلى الشيء لم يكن إلا بالعين، فالنظر هو حسن العين، وهو أيضاً التفكر في الشيء والتأمل"(١).

والنظر هو أيضاً تقليب البصر والبصيرة في الشيء لإدراكه ورؤيته وربما أريد فيه الفحص والتأمل أو المعرفة الحاصلة بعدهما، وإن كان استعمال النظر في البصر يكثر عند العامة، ويكثر عند الخاصة في البصيرة(٢).

إذاً فالفرق دقيق بينهما، فالنظر هو طلب الهدى، وطلب

---

(١) لسان العرب ٢١٥/٥، تاج العروس ٥٧٤/٣، المقاييس ٤٤٤/٥ - الصحاح ٨٣٠/٢ - نزهة الأعجبين النواظر ١٨٦/٢.

(٢) المفردات للراغب ٤٩٧.

ظهور الشيء، والبحث عنه، أى تقليب العين مكان المرئى طلباً لرؤيته، أما الرؤية فهى إدراك المرئى[١].

فالنظم القرآنى أراد أن يبين ما فيه أهل الطاعة من تنعم عظيم يوم القيامة، فهم ينظرون إلى ما أعده الله لهم من أنواع النعيم فى جنة الخلود، والى ما لهم من الكرامات المادية والأثرية والمعنوية، أما الماديات فهى مختلف أنواع الأطعمة الشهية، والشربة الهنية، والحور العين، والمراكب الفارهة والمساكن الفخمة، وأما المعنويات فأنسهم بالله ورؤيتهم له ورضاه عنهم وشعورهم بالأمن والطمأنينة والسعادة الأبدية، فكل كلمة فى القرآن الكريم قد اختيرت اختياراً بالغاً، ووضعت فى مكانها الأخص الأشكل.

والأرائك: "الأسرة فى الحجال فعن الحسن: كنا لا ندرى ما الأريكة حتى لاقينا رجل من أهل اليمن اخبرنا أن الأريكة عندهم كذلك[٢].

وحذف مفعول ينظرون لدلالة ما تقدم عليه من قوله فى ضدهم أنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون، والتقدير: ينظرون إلى ربهم أو لقصد التعميم أى ينظرون كل ما يبهج نفوسهم ويسرهم وهذا وعد وتكريم لهم.

والخطاب فى قوله: "تعرف" لغير معين أى تعرف يا من تراهم وإضافة "نضرة" إلى "النعيم" من إضافة المسبب إلى السبب

---

(١) الفروق فى اللغة لأبى هلال العسكرى ص٥٩ - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان تحقيق حسام الدين القدسى.

(٢) الفخر الرازى ٣٢/٩٩.

أى النضرة والبهجة التى تكون لوجه المسرور الراضى إذ تبدو على وجه ملامح السرور.

وعبر بـ "يسقون" دون "تشربون" للدلالة على أنهم مخدومون يخدمهم مخلوقات لأجل ذلك فى الجنة وذلك من تمام الترفه ولذة الراحة.

وقوله: "ختامه مسك تشبيه بليغ حذفت أداته للمبالغة فى وصف ذلك الشراب، أى كالمسك فى الطيب والبهجة.

وهذا تشبيه رائع وهو من تشبيه المحسوس بالمحسوس الذى يهدف إلى رسم الصورة كما تحس بها النفس.

والختام: ختام شربه أى أخر شربة مسك أى طعم المسك بمعنى نكهته"(١).

والمسك: مادة حيوانية ذات عرف طيب مشهور طيبه وقوة رائحته منذ العصور القديمة، وهذه المادة تكون مملوءة دماً تخرج فى عنق صنف من الغزال فى بلاد التبيت من أرض الصين فتبقى متصلة بعبقه إلى أن تيبس فتسقط فيلتقطها طلابها ويتجرون فيها، وهى جلدة فى شكل فأر صغير لذلك يقولون فأرة المسك(٢).

وقد استمد القرآن المشبه به من البيئة العربية، والطبيعية القريبة من أذهان السامعين وهذا سبب خلود الصورة التشبيهية السابقة و"العناية كلها باقتراب الصورتين فى النفس وشدة وضوحها"(٣).

---

(١) تنوير المقياس ص٦٤١.

(٢) المفردات ١٤٣.

(٣) المثل السائر ١٣٠/٢ - من بلاغة القرآن لأحمد بدوى ١٩٦.

"فالقرآن يختار من الصورة الأدبية ما يمكن أن يكون من الصور العالمية التى تظل موحية، والتى يظل فعلها القوى الساحر بها مهما اختلفت البيئات وتتابع الزمن[1].

وقد فصلت جملة: "ختامه مسك" مما قبلها لأنها بدل مفصل من مجمل، أو لأنها استئناف بيانى ناشئ عن وصف الرحيق بأنه "مختوم" أن يسأل سائل عن ختامها أى شىء هو من أصناف الختام لأن طالب الختام أن يكون بطين أو بغير ذلك فأجيب بأنه مسك.

وقوله: "إن الأبرار لفى نعيم على الأرائك ينظرون تعرف فى وجوههم نضرة النعيم ..."

إطناب بذكر أوصاف المتقين ومقر نعيمهم ترغيباً لغيرهم وتعظيماً لهم.

وهكذا نرى أن القرآن الكريم يعمد إلى الإيجاز تارة وإلى الإطناب تارة أخرى، كما يأتى أحياناً بالجمل مفصولة، وأخرى موصولة حسب استدعاء الحال، واقتضاء المقام لذلك مستعملاً فى ذلك أدق الألفاظ فى التعبير عن هذه المعانى، والناظر فى كتاب رب العالمين يجده يراعى استعمال الكلمة فى مكانها من الجملة، ونظم الجملة فى الآية، وتسلسل الآية فى السورة.

لهذا علا القرآن الكريم، وعجز الجميع من الوصول إلى سر روعته وإعجازه.

والتنافس: تفاعل من نفس عليه بكذا إذا شح به عليه ولم ير أهلاله، وهو من قبيل الاشتقاق من الشىء النفيس وهو الرفيع

---

(١) البيان فى ضوء أساليب القرآن ص٧٨.

فـي نوعـه المرغـوب فـي تحصيلـه، وقـد قيـل: إن الأصـل فـي هـذه المـادة هـو: النفـس، فالتنـافس حصـول النفاسـة بيـن متعـدد، ولام الأمـر فـي فليتنـافس" مستعملة فـي التحريـص والحـث أى وفـي ذلـك فليتبـادر المتبـادرون:

"ونفسـت عليـه الشـيء نفاسـة إذا ضنـت بـه وأن لا تحـب أن يصير إليـه، والتنـافس تفـاعل منهـم، فـإن كـل واحـد مـن الشـخصين يريـد أن يستأثر بـه، لمـا يظهـر مـن نفسـه مـن الجـد والاعتمـال فـي الطاعـة والعبوديـة"(١).

وأصل التنـافس: التغـالب فـي الشـيء النفيس وأصـل مـن النفـس لعزتهـا قـال الواحدى: نفسـت الشـيء أنفسـه نفاسـه، والتنـافس تفـاعل منـه كـان كـل واحـد مـن الشـخصين يريـد أن يسـتأثر بـه وقـال البغـوى هـو أصلـه مـن الشـيء النفيـس الـذى يحـرص عليـه نفـوس النـاس، ويريده كل أحد لنفسه، وينفس به على غيره أى يضن به"(٢).

وصيغـة التفـاعل تـدل علـى المبالغـة ومبالغـة اللـه تعـالى فـي الترهيب فيـه تـدل علـى علـو شـأنه، وفيـه إشـارة إلـى أن التنـافس يجـب أن يكـون فـي مثـل ذلـك النعيـم الدائـم لا فـي النعيـم الـذى هـو مكـدر سريع الفنـاء.

و جملـة: فليتنـافس المتنافسـون "جملـة اعتراضيـه الغـرض منهـا تقرير تنافسـه أى فليسـتبق المتسـابقون".

والإشـارة فـي قولـه: "ذلـك إشـارة إلـى الرحيـق، وهـو الأنسـب

---

(١) غرائب القرآن ٣٠/٥٣.

(٢) البغوى ٤/٤٦١.

لما بعده، أو إلى ما ذكر من أحوالهم ويفيد كذلك الإشعار بعلو مرتبته وبعد منزلته أو لكونه فى الجنة أى فى ذلك خاصة دون غيرهم(١).

"وفى تقديم الجار إشارة إلى أن السعى والاتعاب يجب أن يكون فى مثل ذلك النعيم لا فى النعيم الزائل(٢).

و"التسنيم: عين تجرى فى الهواء بقدرة الله تعالى وتصب فى أوانى أهل الجنة على قدر مائها، فإذا امتلأت أمسك الماء فلا تقع منه قطرة على الأرض ولا يحتاجون إلى الاستسقاء، قال قتادة بن زيد: بلغنا أنها عين تجرى من تحت العرش(٣).

وأصل هذه الكلمة "العلو والارتفاع فلفظ "تسنيم" علم لعين فى الجنة تصب على جنانهم من علو فكأنها سنان، وهذا العلم عربى المادة والصيغة ولكنه لم يكن معروفاً عند العرب فهو من مبتكرات القرآن الكريم التى أخبر بها الجارية على أساليب الكلام العربى حيث لم تسمع هذه اللفظة إلا فى القرآن الكريم.

يقول الرافعى: "ولقد صارت ألفاظ القرآن الكريم بطريقة استعمالها ووجه تركيبها كأنها فوق اللغة، فإن أحداً من البلغاء لا تمتنع عليهم فصح هذه العربية متى أرادها، وهى بعد فى الدواوين والكتب، ولكن لا تقع له مثل ألفاظ القرآن فى كلامه.

وإن اتفقت له نفس هذه الألفاظ بطرقها ومعانيها، لكنها فى

---

(١) تفسير ابى السعود ١٢٨/٩.

(٢) غرائب القرآن ٥٣/٣٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٢٦/٢٠.

القرآن تظهر فى تركيب ممتنع فتعرف به، ولهذا ترتفع إلى نوع أسمى من الدلالة اللغوية أو البيانية التى هى طبيعة فيها وتخرج من لغة الاستعمال إلى لغة الفهم، وتكون بتركيبها المعجز طبقة عقلية فى اللغة[1].

والمقربون هم الأبرار أى الشاربون من هذا الماء مقربون. وفصلت جملة: "عيناً يشرب بها المقربون" عن جملة ومزاجه من تسنيم لما بينها من كمال اتصال، فجملة: "عينا" بيان لما قبلها.

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص٢٥٦.

المبحث الرابع
اسرار التعبير البلاغى فى الآيات التى تتحدث عن سوء معاملة الكفار للمؤمنين فى الدنيا ومقابلتهم بالمثل فى الآخرة

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾.

جاءت جملة "إن الذين أمنوا ..." مؤكدة بـ"إن" لتأكيد مضمون الكلام، ولزيادة ذم المجرمين وتحقيرهم، ولإفادة الاهتمام بالكلام وتوجيه أذهان السامعين إلى أن ما سيلقى بعد "إن" من كلام خبر هام.

وأظهر فى مقام الاضمار فى قوله "إن الذين أجرموا" ومقتضى الظاهر أن يقال لهم: إنكم كنتم من الذين آمنوا تضحكون.

والمراد بـ"الذين أجرموا" المشركين من أهل مكة وخاصة صناديدهم أمثال أبو جهل والوليد بن المغيرة وعقبة ابن أبى معيط، والعاص بن وائل، والأسود بن يغوث، والعاص بن هشام، والنضير بن الحارث، وكانوا يضحكون من عمار بن ياسر، وضباب بن الأرث، وبلال وصهيب، ويستهزئون بهم[1].

---

(١) تفسير أبو السعود ١٢٨/٩ - والتحرير والتنوير ٢١١/٣٠.

والتعبير عن المجرمين بالموصول وصلته للتنبيه على أن ما أخبر به عنهم هو إجرام.

وعبر بالماضى فى قوله: "كانوا يضحكون" للدلالة على ملازمة تلك الصفة لهم فى الماضى.

وعبر بالمضارع فى قوله "يضحكون" للدلالة على تكرار ذلك منهم وإن ذلك أسلوبهم وطبع فيهم، فهم يضحكون ويسخرون من حال المؤمنين دائماً.

وقدم الجار والمجرور فى قوله "من الذين أمنوا" دون أن يقال يضحكون من الذين أمنوا ...".

"أما للقصد للإشعار بغاية شناعة ما فعلوا أى كانوا من الذين آمنوا يضحكون مع ظهور عدم استحقاقهم لذلك على منهاج قوله تعالى "أفى الله شك"[1]، أو لمراعاة الفواصل[2].

والتعبير بالموصول فى شأن المؤمنين فى قوله "الذين أمنوا...".

للتنبيه على تعظيم شأنهم وتفخيم أمرهم وللإشارة إلى أنهم جديرون باتصافهم بهذه الصفة التى ذكرت فى الصلة وهى صفة الإيمان.

وقد فصلت جملة "إن الذين أجرموا ..." عما قبلها لأنها من جملة القول الذى يقال للفجار يوم القيامة المحكى بقوله: ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون" فبينها وما قبلها كمال اتصال.

ويتغامزون: "يتفاعلون من الغمز وهو الإشارة بالجفن

---

(١) سورة إبراهيم آية ١٠.

(٢) تفسير ابى السعود ١٢٩/٩.

والحاجب، ويكون الغمر أيضاً بمعنى العيب، وغمزه إذا عابه، وما فى فلان غميزة اى ما يعاب به، والمعنى أنهم يشيرون إليهم بالأعين استهزاء ويعيبونهم ويقولون انظروا إلى هؤلاء يتعبون أنفسهم ويحرمونها لذتها ويخاطرون بأنفسهم فى طلب ثواب لا يتيقنونه"[١].

والانقلاب إلى الأهل معناه: رجوعهم إلى بيوتهم، وإنما عبر بالأهل من اطلاق الحال وإرادة المحل فهو مجاز مرسل.

وقد أدى المجاز المرسل دوره فى بلاغة السياق وإيجازه وروعته فسر أهل الرجل زوجته وأبنائه وذكر الأهل هنا لأنه ينبسط إليهم بالحديث فلذلك قيل: "إلى أهلهم" دون إلى بيوتهم.

والمعنى: "وإذا رجع الذين أجرموا إلى بيوتهم وخلصوا مع أهلهم تحدثوا أحاديث الفكاهة معهم بذكر المؤمنين وذويهم[٢].

وذلك لما فى إعادة الفعل من زيادة تقرير معناه فى أذهان السامعين لأنه مما ينبغى الاعتناء به، ولزيادة تقرير ما فى الفعل من إفادة التجدد وحتى يكون فيه استحضار صورة الحالة فى الأذهان.

وحذف متعلق "فاكهين" للعلم به من سياق الكلام، والتقدير، فاكهين بالتحدث عن المؤمنين، وقد أفاد الحذف هنا الإيجاز والاختصار فى الكلام.

وقد أكدت جملة: "إن هؤلاء لضالون" بحرف التأكيد واسمية الجملة ولام الابتداء لقصد تحقيق الخبر وتأكيده وتقريره فى أذهان السامعين ونفوس المخاطبين.

---

(١) الفخر ١٠٢/٣٢,

(٢) التحرير والتنوير ٢١٢/٣٠.

والخبر فى قوله: "وما أرسوا عليهم حافظين ..." خرج من معناه الحقيقى إلى معنى آخر مجازى وهو: "التهكم بالمشركين" أى لم يكونوا مقيضين للرقابة عليهم، والاعتناء بصلاحهم" وإشعاراً بأن ما اجترؤا عليه من القول من وظائف من أرسل من جهته تعالى"[١].

والجملة حال معترضة إنكاراً من الله عليهم وتهكماً بهم، أى ينسبون المسلمين إلى الضلال، والحال أنهم لم يرسلوا على المسلمين موكلين بهم، حافظين عليهم أحوالهم.

"ولا يخفى ما فى هذا الاختبار والحكاية من تسلية المؤمنين وتثبيتهم على الإسلام، والتصبر على متابع التكاليف، وأذية الأعداء فى أيام معدودة لنيل ثواب لا نهاية له ولا غاية"[٢].

والاستعلاء هنا مجازى.

وقدم على متعلقه للاهتمام بمفاد حرف الاستعلاء وبمجروره مع رعاية الفاصلة.

وعبر عن المؤمنين باسم الموصول لتشريفهم وتكريمهم وبين: "أجرموا – وأمنوا" طباق جميل حسن المعنى، وجمل الأسلوب، وزاده روعة وبهاء.

"فاليوم الذين أمنوا من الكفار يضحكون"

تعريف اليوم بـ"اللام" ونصبه على الظرفية للدلالة على أنه يوم حاضر موقت به الفعل المتعلق به، ومعلوم أن اليوم الذى

---

(١) تفسير ابى السعود ٩/١٣٠.

(٢) غرائب القرآن ٣٠/٥٣ ، ٥٤.

يضحك فيه المؤمنون من الكفار وهم على الأرائك هو يوم حاضر حين نزول هذه الآيات"[١].

وجملة: "فاليوم الذين آمنوا ..." مقول قول محذوف دل عليه القول المذكور وهو قوله: "ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون. والتقدير: ويقال لهم اليوم الذين أمنوا يضحكون منكم.

وقدم الظرف وهو قوله: "اليوم" على الجملة الفعلية "يضحكون" للاهتمام بذلك اليوم، فهو يوم الجزاء العظيم الأبدى.

وتقديم المسند إليه "الذين أمنوا من الكفار" على المسند الفعلى "يضحكون" دون أن يقال: "فاليوم يضحك الذين أمنوا لإفاده القصر الإضافى الذى أفاد المعنى مؤكداً فى الأذهان.

"وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلى يقوى الحكم"[٢]. كما قدم الجار والمجرور "من الكفار" على متعلقه وهو "يضحكون" للاهتمام بالمضحوك منهم تعجيلاً لإساءتهم عند سماع هذا التقريع.

وقد تنوعت أساليب التقديم وطرقه فى الآيات السابقة حسب استدعاء الحال واقتضاء المقام لذلك.

يقول الإمام عبد القاهر عن أهمية التقديم والتأخير فى البلاغة القرآنية هو "باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعه ويقضى بك إلى لطيفه، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه ويلطف لديك موقعه، ثم

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٢٠٩.

(٢) دلائل الاعجاز ص١٠٠ وما بعدها.

تنظر فترى سبب أن راقك ولطف عندك أن قدم فيه شيء وحول اللفظ من مكان إلى مكان"[١].

وفي قوله: "من الكفار" إظهار في مقام الإضمار فكان مقتضى الظاهر أن يقال: "منهم يضحكون" كما في لفظ "الكفار" من الذم لهم والتشنيع بهم، وفي ذلك تنفير من الكفر والكفار.

ومفعول "ينظرون" محذوف دل عليه قوله: "من الكفار يضحكون" تقديره: ينظرونهم، أي يشاهدون المشركين في العذاب والإهانة.

وهذه الآية جيء بها للمقابلة فهي في مقابل قوله تعالى: "كانوا من الذين آمنوا يضحكون" للدلالة على زوال استهزاء المشركين بالمؤمنين، فاليوم المؤمنون يضحكون من الكفار دون العكس.

والمقابلة من المحسنات البديعية المعنوية التي كست اللفظ حلاوة، وزادته طلاوة، وأكدت المعنى في ذهن السامع اشد تأكيد.

وقوله: "هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون".

جملة إنشائية طلبية جاءت على صور الاستفهام الذي خرج من معناه الحقيقي إلى معنى آخر مجازي وهو التقرير والتعجيب من عدم إفلاتهم من العذاب بعد دهور أي هل قدرنا على الإثابة نحو: "هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً".[٢]، [٣].

والخطاب الذي جاء في هذه الصورة الاستفهامية موجه لغير

---

(١) المرجع السابق ص٨٣ وما بعدها.

(٢) سورة الأعراف آية.

(٣) غرائب القرآن ٣٠/٥٤.

معين للدلالة على اتعاظ كل من يسمع ذلك النداء يوم القيامة، وهى مقول قول محذوف.

وفى الاستفهام التهكمى مزيد غيظ للكافرين، وسرور وتنفيس للمؤمنين.

هل ثوب: أى هل جوزى بسخريتهم فى الدنيا بالمؤمنين إذا فعل بهم ذلك، وقيل: إنه متعلق بـ "ينظرون" أى ينظرون هل جوزى الكفار؟

فيكون معنى "هل" التقرير وموضعها لصبا "ينظرون" وقيل استئناف لا موضع له من الإعراب، وقيل هو إضمار على القول والمعنى: يقول بعض المؤمنين لبعض هل ثوب الكفار، أى أثيب وجوزى وهو من ثاب يثوب أى رجع فالثواب ما يرجع على العبد فى مقابلة عمله، ويستعمل فى الخير والشر[١].

وهذا القول زائد فى سرورهم، لأنه يقتضى زيادة فى تعظيمهم، والاستخفاف بأعدائهم.

والمقصود من ذلك تسلية المؤمنين وتقوية قلوبهم. والمعنى كأنه تعالى يقول للمؤمنين: "هل جازينا الكفار على عملهم الذى كان من جملته ضحكهم بهم واستهزاؤهم بطريقتكم كما جازيناكم على أعمالكم الصالحة، فيكون هذا القول زائداً فى سرورهم لأنه يقتضى زيادة فى تعظيمهم والاستخفاف بأعدائهم، والمقصود منها أهوال القيامة"[٢].

وفى قوله: "ثوب الكفار" استعارة تهكمية فالثواب ما يجازى به من الخير على فعل محمود وهو حقيقته، فاستعماله فى جزاء

---

(١) القرطبى ٢٠/٢٦٨.

(٢) الفخر ٣١/١٠٣.

الشر هنا: استعارة تهكمية[1]، جيء بها للتهكم والسخرية بالكفار.

فاستعير لفظ "الثواب" وهو يستعمل فى الجزاء على الخير للعقاب الذى هو ضده لإدخال العقاب فى جنس الثواب لتنزيل التضاد بين الثواب والعقاب منزلة التناسب بواسطة التهكم.

فشبه العقاب بالثواب بجامع إدخال السرور على النفس بالمكافاة فى كل منهما وهو تنزيلى فى المشبه حقيقى فى المشبه به، ثم استعير الثواب للعقاب على أفعالهم المنكرة القبيحة واستعارة المشبه به للمشبه بواسطة التهكم والاستهزاء بإدخال جنس العقاب فى جنس الثواب والعلاقة بينهما التهكم والاستهزاء.

وتسمية العقاب بالثواب تهكم واستهزاء بالكافرين لأن الجزاء على الأفعال القبيحة موضوع له لفظ العقاب.

والاستعارة فى الآية تصريحية للتصريح فيها بالمشبه به وهو الثواب. كما أنها تبعية لأنها فى المشتق فقد اشتق من الثواب ثوب بمعنى عوقب على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

"ما كانوا يفعلون":

ليس الجزاء هو ما كانوا يفعلونه بل عبر عنه بهذه الصلة للمشاكلة لعادلته شدة جرمهم على طريقة التشبيه البليغ أو على حذف مضاف تقديره: مثل ما كانوا يفعلون. وحذف المفعول فى قوله: "تفعلون" ليشمل الواناً كثيرة.

وألفاظ الآية فى عمومها قوية معبرة موحية بالقوة والعظمة

---

(١) المفردات ص ٨٠.

من خلال ظلالها وبنيتها لتناسب مقام الوعيد والتهديد.

فالكلمات متآخية فى معانيها، متلاقية فى مبانيها منسجمة فى نغماتها، وكل لفظة منها كفيلة وحدها بتصوير ما يقاسيه الكافرين من آلام يوم القيامة.

وتمتاز هذه السورة كغيرها من سائر سور القرآن الكريم أن بين مطلعها التئام رائع وتوافق بديع، وانسجام خلاب.

وهاذ ما يسمونه فى البلاغة العربية براعة الاستهلال أو حسن الابتداء وحسن الانتهاء.

فمطلعها يتحدث عن وعيد المطففين، وشدة عذابهم، والدعاء عليهم بسوء الحال وعاقبة المآل.

وختامها فيه نفس الوعيد والتهكم بالكفار حيث قال: "هل ثوب الكفار ما كنوا يفعلون"[1] أى هل جوزى الكفار إلا ما كانوا يفعلونه من أفعال خبيثة وهى التطفيف والسخرية بالمؤمنين، والكفر والجحود بنعمة الله عليهم.

فالجزاء من نفس العمل، وهذا هو الجزاء العادل لهم.

وجميع خواتيم السور القرآنية فى غاية الحسن ونهاية الكمال وهذا من الإعجاز البلاغى فى القرآن الكريم.

---

(١) سورة المطففين آية ٣٦.

الرقة والجزالة ومواطنها في السورة الكريمة:

تنقسم ألفاظ اللغة العربية من حيث الاستعمال إلى جزالة ورقيقة، ولكل منهما موضع يحسن استعماله فيه.

والجزالة هي: القوة والكثرة فالحطب الجزل لغة القوى العود الذى تصبر النار بعض الوقت على التهامة، ثم قيل على سبيل المجاز رجل "جزل إذا كان ذا عقل قوى، وشعر جزل إذا تماسك وقوى أسلوبه، ففى الجزالة قوة تقابل الرقة"(١).

فالرقة إذن هي: العذوبة والسهولة والجزالة لا تتعارض مع عذوبة الألفاظ ورقتها، فهى ليست مجرد جمع للألفاظ القوية الغريبة المتوعرة بل معناها القوة والرصانة، كما أن الرقة لا تتعارض مع متانة الأسر، وقوة التسبح"(٢).

والمعنى دائماً هو الذى يختار من الألفاظ ما يناسبه ويقويه، فإذا كان هذا هو الحال فى اللغة العربية بصفة عامة فماذا يكون الشأن إذاً فى القرآن الكريم الذى هو قمة الإعجاز البلاغى؟

فالقرآن الكريم لا يؤثر لفظاً لمجرد أنه رقيق عذب، ولا آخر لمجرد أنه قوى جزل، بل لكل منهما موضع لا يخلفه فيه غيره فالقرآن الكريم يستعمل اللفظ المناسب للمعنى الذى يتحدث عنه حسب الموقف والغرض، ويتضح ذلك من خلال آيات سورة المطففين.

---

(١) لسان العرب ٦١٨/١.

(٢) البيان القرآنى د/ محمد رجب البيومى ص٣٠ ، ٣١ مجمع البحوث الإسلامية السنة الثالثة للكتاب الواحد والثلاثون ربيع الثانى ١٣٩١هـ ١٩٧١م.

مواطن القوة:

يستعمل القرآن الكريم الألفاظ القوية القارعة لدى حديثه عن المطففين وما لهم من عذاب وألم وعقاب وبيل كذلك لدى وعيده المكذبين بيوم الدين ومنكرى البعث.

تقرأ قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلاَ يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ (٦)﴾.

فالآيات توقظ النفوس من رقدتها وتحركها من ساكنها وتحذرها من التطفيف، وهى تهديد للمتصفين بهذه الصفة الذميمة.

وقد أتى الله بهذا المعنى فى أسلوب جزل قوى قارع يتضمن التهديد والوعيد لهم بأشد العذاب وأقساه.

وقد جاءت الألفاظ فى الآيات السابقة فى قمة القرع والقوة وذلك للتحذير من التطفيف، والتذكير بالبعث وما يحدث فيه من أهوال تشيب من هولها الرؤوس.

وقد جاءت الآيات السابقة تصور مشهداً من مشاهد يوم القيامة وهى قيام الناس لرب العالمين، مستذكراً عليهم إنكارهم البعث موبخاً لهم على اجترائهم على التطفيف كأنه لا يخطر ببالهم ولا يخمنون أنهم مبعوثون.

كذلك يسلك النظم الكريم هذا الأسلوب فى تأكيد الوعيد والتهديد للمطففين بأن يكون عملهم موجباً كتبه فى كتاب الفجار عن طريق التعريض قال تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ

وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ "٧ : ١٧".

فالآيات تتحدث عن الفجار وعن أعمالهم القبيحة المكتوبة عليهم، وعن وعيد المكذبين الذين يكذبون بيوم الدين، وإذا تليت عليهم آيات الله قالوا بل هي خرافات السابقين الأولين نظراً لما طبع على قلوبهم من الضلالة والعمى حتى أنهم لا يروا ربهم يوم القيامة ويصلوا بنار الجحيم ويقال لهم هذا ما كنتم تذكرونه وتكذبونه.

وقد جاء ذلك بألفاظ قوية قارعة سديدة توقظ النفوس الغافلة من غفلتها لترتدع وتجتهد في الإيمان وفعل الخيرات وتؤكد المعنى المراد.

وبعد أن ترق ألفاظ النظم القرآني لدى حديثه عن كتاب الأبرار وما أعد لهم من ألوان التكريم والتنعيم والتبجيل يعود النظم القرآني إلى الشدة فيشتد النظم ويتعالى القرع مؤكداً الكلام بـ"إن" ليزيد في قوة القرع في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ "٢٩ : ٣٤".

فالآيات قد صورت بألفاظها الجزالة القوية مدى سخرية المجرمين بالمؤمنين واستهزائهم بهم.

وتلحظ رغم جزالة الألفاظ وقوتها نغمة الهدوء التي تشيع

الهدوء والثبات فى النفوس المؤمنة تسلية للمؤمنين وتثبيتاً لهم على الإسلام والتصبر على متابع التكاليف.

ثم بعد ذلك يأتى الجزاء العادل من الله تعالى بقوله "هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون".

وفى الاستفهام التهكمى السابق مزيد غيظ للكافرين وسرور وتنفيس للمؤمنين.

مواطن الرقة:

وكما ورد فى هذه السورة مواطن عديدة للقوة والجزالة فقد ورد فيها أيضاً مواطن للرقة والليين وذلك لدى حديثه عن الأبرار وما هم فيه من رخاء ونعيم بأسلوب هادئ إيناساً وتكريماً لهم وإعلاناً للفضل تارة، وللقرب من الله تعالى تارة فى معرض النعيم والتكريم: والتعريف بكتابهم ومكانته.

﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ يَشْهَدُهُ المُقَرَّبُونَ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المُتَنَافِسُونَ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا المُقَرَّبُونَ﴾"١٨: ٢٨".

وقد عرف النظم القرآنى السابق بهؤلاء الأبرار وكتابهم ومكانتهم ومكانة أعمالهم عند الله فى صورة مضيئة شفافة للقلوب مخلصة جادة عازمة على الوفاء لله بتكاليف العقيدة وقد ظهر ذلك من شفافية الألفاظ ورقتها التى نبع من شفافيتها وشدة رقتها رحمة ندية بعبادة الضعاف، ورغبة فى رضاه، فقد فعوا ما

اعتزموا من الطاعات وما التزموا من الواجبات.

ويمضي النظم الكريم بألفاظ هادئة وعبارات مطمئنة تبعث وتنشر الرضا والثبات في النفوس حيث يتحدث السياق عن رفعة كتاب الأبرار ورفعة أعمالهم في الشرف والفضيلة لذلك استحقوا التكريم والتشريف بهذا الثواب الأخروي وهو الكون في الجنة ونعيمها الرغد جالسين جلوساً مريحاً على الأرائك ينظرون إلى ألوان التكريم في الجنة تبدو على وجوههم النضرة.

ويواصل السياق القرآني رسم الصورة المرهفة الوضيئة للجنة وما فيها من تفصيلات المناعم من الشراب السائغ العذب، والنظر إلى ما أعده الله لهم من أنواع النعيم في جنة الخلود والذي يظهر على وجوههم. أعقبه بالترغيب في الطاعة والوصول إلى منزلة هؤلاء الأبرار بقوله: "وفي ذلك فليتنافس المتنافسون" أي فليستبق المتسابقون إلى النعيم العظيم الدائم.

وقد جاء بالآية في أسلوب هادئ رخي ترغيباً في الطاعة، وتحبيباً فيها. وقد جاء بالألفاظ رقيقة عذبة في غاية الروعة والجمال تشيع الهدوء والاطمئنان في القلب.

الفواصل وبلاغتها في السورة الكريمة:

إن انسجام الحرف في القرآن الكريم كله له أثر واضح في إحداث النغم وتوفير الحسن في الفواصل القرآنية التي يغلب ختمها بحرفي النون والميم، اللذان هما أنسب حرفين في لغة التوقيع.

يقول الرافعي: "وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن الكريم إلا صورة تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى وهي متفقة مع آياتها اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت

والوجه الذى يساق عليه بما وراءه فى العجيب مذهب، وتراها أكثر ما تنتهى بالنون والميم، وهما الحرفان الطبيعيان فى الموسيقي نفسها، أو بالمدة وهو كذلك طبيعى فى القرآن. فإن لم تنته بواحدة من هذه كان انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى، كان ذلك متابعة لصوت الجماعة وتقطيع كلماتها، ومناسبة للون المنطق بما هو أشبه وأليق بموضعه"(١).

كما أن الفاصلة ليست معجزة وحدها، بل هى جزء يسهم فى الإعجاز(٢).

وسورة "المطففين" التى هى موضوع البحث ينطبق عليها كل هذا الكلام، فهى من سور القرآن الكريم الموجزة المعجزة، التى جاءت فواصلها مختومة بحرفى "الميم والنون" وهما من الحروف المجهورة والحرف المجهور هو: "حرف أشبع الاعتماد فى موضعه وصنع النفس إن يجرى معه، حتى ينقضى الاعتماد ويجرى الصوت"(٣).

كما أن الميم والنون من الحروف "التى تجمع بين الشدة والرخاوة وهما من الحروف المذلقة التى تمتزج بصوت الغنة لأن الغنة صوت من أصوات الخيشوم والخيشوم مركب الغار الأعلى، وإليه ليسمو هذا الصوت، وتخرج هذه الحروف من طرف اللسان، وهى من أخف الحروف وأحسنها امتزاجاً بغيرها"(٤).

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص٢١٦، دار الكتاب العربى - بيروت - لبنان.

(٢) الفاصلة فى القرآن تأليف محمد الحسناوى ص٣١٩ الطبعة الثانية - بيروت ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٣) انظر صناعة الإعراب لابن جنى تحقيق حسن هنداوى ٦٠/١ ، ٦١، الطبعة الأولى - دار القلم دمشق ١٤٠٥ - ١٩٨٥ - الأصوات اللغوية د/ إبراهيم أنيس ص٢١ - الطبعة السادسة ١٩٨٤م - مكتبة الأنجلو المصرية.

(٤) جمهرة اللغة لابن دريد أبى بكر محمد بن الحسن الأزدى ٦/١ ، ٧ - دار

والقارئ لسورة المطففين يشعر بالمناسبة التامة والانسجام الواضح بين موضوعها ونغمتها، فقد جاءت مقدمتها قوية الجرس، جميلة الفواصل، فالنون تعطى النفس إعانة فى النطق وراحة فى الأداء حيث النغمة القوية القارعة المنسجمة مع موضوعها الذى سيقت له وهو وعيد المطففين.

فلكل فقرة فى كل آية نغمة موزونة، يشعر تاليها بانسجامها وسلاستها، وتنتهى الفقرة فى كل آية بهذه الفاصلة الحلوة التى ينتهى الكلام عندها، ويستقر الفكر فيها فى نتيجة وهى المنتهية بهذه الألفاظ "المطففين يستوفون، يسخرون، مبعوثون".

وقد تنوعت فواصل سورة المطففين إلا أنها لم تخرج عن الميم والنون. وهما حرفان متقاربان فى المخرج وهذا من بلاغة الفواصل وحسنها لما فيها من البلاغة وحسن العبارة.

والتغاير فى مبنى الفواصل من خواص نظم القرآن، وتأتى هذه الظاهرة تنشيطاً للسامع والقارئ، وللملائمة والاتساق ومراعاة المعنى وليس لمجرد الحلية اللفظية استمع إلى قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أَلاَ يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾[1].

ويتغير مبنى الفاصلة عند قوله تعالى "ليوم عظيم"[2] ليرجع إلى حرف النون ثانياً فى قوله: "يوم يقوم الناس لرب العالمين"[3]

صادر - بيروت.

(١) سورة المطففين ١ : ٤.

(٢) سورة المطففين آية ٥.

(٣) سورة المطففين آية ٦.

وهكذا ... إلى أخر السورة.

وعندما نقف على نهاية كل فقرة من هذه الفقرات المشتركة فى حرف الفاصلة نجد أن الفقرة وحده مستقلة من حيث المعنى فحرف الفاصلة قد روعى فيه المعنى والغرض.

فإذا ما استقريت سورة المطففين تجد أن الآيات قد كمل معناها بالفاصلة، وأن الفاصلة قامت بأداء نصيبها فيه.

"والوزن والفاصلة فى القرآن الكريم يكسب النظم قوة فى التعبير لأن انسياب النغم الموسيقى فى الآيات بها وتدفقه مع المعانى يعطى قوة ولينا، متمم للأثر القوى الذى يحدثه القرآن فى نفوس السامعين عن طريق الحس السمعى"(١).

والتناسق بين الفواصل ظاهر فى سورة "المطففين".

ففى بعض آياتها جمال هادئ رقيق، ندى النسمات والايقاعات، وذلك لدى الحديث عن الأبرار وما يتصفون به من سمات، وما استحقوه من التكريم والتنعيم.

﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ يَشْهَدُهُ المُقَرَّبُونَ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المُتَنَافِسُونَ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا المُقَرَّبُونَ﴾.(٢)

وإذا ما نظرنا فى الآيات السابقة نجد أن الفاصلة مستقرة فى

---

(١) أثر القرآن فى تطور النقد الأدبى ٢٤٣ د/ محمد زغلول سلام.

(٢) سورة المطففين ١٨ : ٢٨.

قرارها مطمئنة في موضعها، غير نافرة ولا قلقة يتعلق معناها بمعنى الآية تعليقاً تاماً، بحيث لو طرحت لاختل المعنى، واضطرب الفهم فهي تؤدى في مكانها جزءاً من معنى الآية ينقص ويختل بنقصانها.

فالآيات قد كمل معناها بالفاصلة، والفاصلة قامت بأداء نصيبها منه، وأكثر فواصل السورة على حرف النون وقليل منها على حرف الميم حسب المقام واستدعاء الحال.

فـ "التنوين والنون" يصحبان الغنة وهي تعمر شجر تعشقه الأذن، وتلذه النفس، ولذلك يكثر دخوله في التركيب مفردات اللغة تطريباً وتشجية، فنرى منه الكثير المكرر في تضاعيف الكلام وقوافيه، وقد توفر للقرآن منه أكبر ما يرى في قول قائل.

ومن هذا الاستعراض السريع تبدو الألوان المتعددة في آيات السورة وايقاعاتها في تعبيرها وفي تنغيمها كما يبدو تعدد نظام الفواصل، وتغير حروف القوافي بحسب تنوع المعاني والمشاهد.

فالسورة من هذا الجانب نموذج واف التناسق في عرض المعاني، وجمال الفواصل فيما تعبر عنه من معان فوق ما فيها عموماً من جمال ملحوظ.

وقد أشاد الإمام عبد القاهر الجرجاني بالجانب اللفظي في القرآن الكريم وذكر أن له دوراً في الإعجاز فقال:

"وأعلم أنا لا نأبى أن تكون مذاقه الحروف وسلامتها مما يثقل على اللسان داخلاً فيما يوجب الفضيلة، وأن تكون مما يؤكد أمر الإعجاز"[1].

---

(١) دلائل الإعجاز ص٢٥٢.

الخاتمة

وبعد هذه الرحلة المباركة فى رحاب سورة المطففين وما فيها من أسرار بلاغية رائعة التركيب، جميلة السبك متآخية الألفاظ سلسلة الأسلوب، كما هو الحال والشأن فى جميع سور القرآن الكريم على السواء.

وهذا إن دل فإنما يدل على بلاغة القرآن الكريم الفياضة وسمو بيانه الموجز المعجز.

فالدارس لكتاب الله العزيز بفهم وبنية صادقة يجد العديد من معجزات هذا الكتاب، يجدها فى بلاغته المعجزة ولغته الراقية، واسلوبه الموجز البليغ، وطريقة جمعه وترتيبه المنسق البديع كما يجدها فى علومه الفياضة ومعارفه الكثيرة.

هذا ولما كان موضوع البحث: "من أسرار التعبير البلاغى فى سورة المطففين. فقد استخرجت الصورة البلاغية، وبينت جمالها فى الأسلوب القرآنى، ووضحت سرها البلاغى كى تظهر روعة الإعجاز القرآنى.

ولم أقتصر على الصورة البلاغية المتداولة فى كتب البلاغة بل تطرفت إلى كتب الاعجاز القرآنى التى تبحث فى المفردة وحسن اختيارها فى مكانها، ودقة موقعها فى النص، ووقعها فى النفس.

وامتازت السورة بالأسلوب البلاغى المعجز الرصين فكان لكل مقام مقال، فقد اشتملت السورة الكريمة على نوعى الأسلوب البلاغى الخبر والإنشاء، والذكر والحذف، والتقديم والتأخير والفصل والوصل.

وكان من مظاهر الإعجاز البلاغي في السورة الصور البيانية الرائعة من تشبيه واستعارة ومجاز مرسل وكناية، والتي كانت تظهر المعنى المجرد في صورة حسية ملموسة.

وكان للبديع دوره فهو لم يأت لمجرد الحلية اللفظية إنما جاء لمقتضيات معنوية، وأسرار بلاغية لا يكمل المعنى ولا يتم بدونها.

وأرجو أن أكون وفقت في الوقوف على أسرار التعبير البلاغي في السورة الكريمة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

مصادر البحث ومراجعه

☆ الاتقان فى علوم القرآن للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم – المكتبة العصرية – صيدا – بيروت ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

☆ أثر القرآن فى تطور النقد الأدبى – د/ محمد زغلول سلام.

☆ أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجانى – دار المعرفة – بيروت.

☆ إعجاز القرآن للرافعى – دار الكتاب العربى – بيروت – لبنان.

☆ البرهان فى علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم – مكتبة دار التراث.

☆ البيان فى ضوء أساليب القرآن د/ عبد الفتاح لاشين – الطبعة الثانية ١٩٨٥م – دار المعارف.

☆ تاج العروس للزبيدى – الطبعة الأولى – المطبعة الخيرية ١٣٠٦هـ.

☆ تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر وبيان المجاز القرآنى لابن أبى الاصبع المصرى ٥٨٥ – ٦٥٤هـ تقديم د/ حفنى محمد شرف – يشرف على إصدارها محمد توفيق عويضة – القاهرة – ١٩٨٣م.

☆ تفسير أبى السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لقاضى القضاة أبو السعود محمد العمادى ت ٩٥١هـ دار إحياء التراث العربى – بيروت – لبنان.

☆ تفسير البغوى المسمى معالم التنزيل للبغوى ت ٥١٦هـ اعداد وتحقيق عبد الرحمن العك مروان – دار المعرفة – بيروت – الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

☆ تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور – الدار التونسية ١٩٨٤م.

☆ التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج د/ وهبه الزحيلى – دار الفكر العربى – الطبعة الأولى ١٤١١ – ١٩٩١م.

☆ التكرير بين المثير والتأثير د/ عز الدين على السيد – عالم الكتب – الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ – ١٩٨٦م.

☆ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس – الناشر مكتبة الجمهورية العربية لصاحبها عبد الفتاح عبد الحميد مراد.

☆ تهذيب اللغة للأزهرى تحقيق عبد السلام هارون – مراجعة محمد على النجار – الدار المصرية.

☆ الجامع لأحكام القرآن للقرطبى – دار إحياء التراث العربى – بيروت – لبنان ١٩٦٦م.

☆ جمهرة اللغة لابن دريد الأزدى – دار صادر – بيروت.

☆ دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى تحقيق السيد محمد رشيد رضا – دار المعرفة – بيروت – لبنان ١٤٠٢هـ ١٩٨١م.

☆ سر صناعة الإعراب لابن جنى تحقيق حسن هنداوى – الطبعة الأولى – دار القلم – دمشق ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

☆ شروح التلخيص للخطيب وآخرون – دار السرور – بيروت.

☆ شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ت ٦٨٢هـ ومعه كتاب منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل تأليف محمد محى الدين عبد الحميد – دار الفكر ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م – الطبعة السادسة.

☆ غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى ت ٧٢٨ تحقيق إبراهيم عطوه عوض – مطبعة البابى الحلبى – الطبعة الأولى ١٣٨١هـ ١٩٦٢م.

☆ الفاصلة فى القرآن تأليف محمد الحسناوى – الطبعة الثانية – بيروت – ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

☆ الفروق فى اللغة لأبى هلال العسكرى تحقيق لجنة إحياء التراث العربى – دار الآفاق الجديدة – الطبعة الخامسة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

☆ الكشاف للزمخشرى – دار الكتاب العربى – بيروت – لبنان – ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

☆ المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصبهانى ٥٠٢هـ تحقيق محمد سيد كيلانى – مطبعة الحلبى ١٣٨١هـ ١٩٦١م – الطبعة الأولى.

☆ مقاييس اللغة لابن فارس – الطبعة الأولى ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م –مطبعة الحلبى.

☆ من بلاغة القرآن لأحمد أحمد بدوى – دار نهضة مصر ١٣٧٠هـ ١٩٥٠م.

فهرس موضوعات البحث

المقدمة ٦١٥
التمهيد: التعريف بالسورة الكريمة من حيث:
تسميتها ٦١٨
عدد آياتها ٦١٨
مكية السورة أم مدنيتها ٦١٨
سبب نزولها ٦١٩
مناسب السورة لما قبلها ٦٢٠
الأغراض التى اشتملت عليها السورة الكريمة ٦٢١
البلاغة فى السورة الكريمة وقد جاء فى:
المبحث الأول
أسرار التعبير البلاغى فى الآيات
التى تتحدث عن وعيد المطففين ٦٢٣
المبحث الثانى
أسرار التعبير البلاغى فى الآيات
التى تتحدث عن ديوان الشر وقصة الفجار. ٦٣٦
المبحث الثالث
أسرار التعبير البلاغى فى الآيات
التى تتحدث عن ديوان الخير وقصة الأبرار ٦٤٩
المبحث الرابع
أسرار التعبير البلاغى فى الآيات
التى تتحدث عن سوء معاملة الكفار للمؤمنين فى الدنيا
ومقابلتهم بالمثل فى الآخرة ٦٦٠
تعقيب: وقد اشتمل على:
الرقة والجزالة ومواطنهما فى السورة الكريمة ٦٦٩
الفاصلة وبلاغتها فى السورة الكريمة ٦٧٣
الخاتمة ٦٧٨
فهرس مصادر البحث ومراجعه ٦٨٠
فهرس الموضوعات ٦٨٣